مرزوق

فوضى التعليم في مصر

١

تجليد
صالح الدقر

[redacted]

V.1

مرزوق، عبد الصبور.

فوضى التعليم في مصر.

MAR 8 A156

MAR 23 1-A

NOV 20 X264

[redacted]

42 56

DE 4'56

DE 18 56

370.962
M393fA

عبد المتعال مرزوق

فوضى التعليم في مصر

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٩٥١

المطبعة المنيرية بالأزهر

مكتبة العرب

مديرها : صلاح الدين البستاني

٢٨ ش كامل صدقي (الفجالة) القاهرة

الإهـــداء

الى الذين ايمانهم خالص بالشعب

والى الذين جهادهم وقف لخير الشعب

الى أولئك وهؤلاء نقدم هذا الحديث

هـــذا الكتاب

ألف الكاتبون منذ زمن طويل أن يتقدم بعضهم ببعض إلى القراء .

ومن طبيعة هـذا الإلف أن يكون صاحب الكتاب آخر المتحدثين عنه .

وتلك من غير شك سنة ليس عليها بأس لأنها تتيح للكاتب فرصة الخلاص من الحديث عن النفس وما يستتبع من نفور وعدم ارتياح من كثيرين من القراء .

ولأنها تتيح الفرصة أيضاً لتقديم العمل الفنى على صورته الحقيقية أو أقرب الصور إليها بقلم لا يتحرج ولا يحتفظ ولا يحتاط وإنما يجعل من « المقدمة » مرآة مجلوة صافية يرى القارىء فيها إلماماً مصوراً موجوزا لما هو مقبلٌ عليـــه ويرى الكاتب فيها إلماما مصوراً موجزا لما قد فرغ منه .

فعمل « كاتب المقدمة كعمل الناقد مع شيء من خلاف كلاهما وسيط بين الكاتبين والقراء .

وعلى هـذا المألوف الجميل أردت أن أنتهج ، وكان مقدراً أن

يتقدم بالكتاب زميلنا الصديق الأستاذ سيد قطب ، ولكن عارضا ما حال بين الزميل الصديق وبين ما يريد .

فكان لابد مما ليس منه بد ، وأحسستنى أعانى حيرة شديدة فى تقديم نفسى إلى الزملاء ، واستشعرت بوضوح ثقل الحديث عن النفس وما فيه من حرج وضيق ، وهممت أن ألغى هذا التقديم لولا أن طابع الكتاب كان قد فرّغ للتقديم صفحات أربعا لابد أن تمتلىء بحديث عن الكتاب يعرض فصوله للقراء عرضاً سريعاً فى إلمام موجز .

وعلى أى حال فقد وجدتنى مكرها على أن أكتب هذه الصفحات ، وأن أتحدث فيهن عن الكتاب ، وأقول عنه فيهن شيئا .

قصة هذا الكتاب هى قصة الكفاح الهادىء المطمئن فى سبيل الخير .

قصة حملة الأقلام الذين لا يملكون من أمر شعوبهم شيئاً أكثر من أن يكتبوا ويقولوا .

والذين يعتصرون من دماء قلوبهم مداداً يسطرون به دستور كل نهضة ، وكل حظهم من السعادة أن تستجيب الشعوب لما يريدون .

وقد بدأت القصة فى نفسى شعوراً ملحا فى الكتابة عن « الأوضاع الخاطئة فى مصر » ، وأظنها من الكثرة والشيوع بل ومن الخطورة أيضاً بحيث تكون جديرة بما تستحق من عناية ، وجديرة بما تلقى من الفراغ لها .

وفى غمرة هذا الشعور القوى بدأت بالأوضاع الخاطئة فى وزارة المعارف المصرية ، ومن هذه الأوضاع ما تتأثر به سياسة التعليم تأثراً يشيع فيها الفوضى والأذى من قرب ومن هذه الأوضاع أيضاً ما تتأثر به سياسة التعليم تأثراً يشيع فيها الفوضى والأذى من بعد ومهما يكن من شىء فوزارة المعارف أجدر مرافق الدولة بأن يبدأ بنقدها وعلاجها مثلى : لأنى بطبيعة العمل المهنى أصدق الناس إحساساً بخيرها وبلاها . ولأنها بطبيعة إشرافها العام على عقلية الشعب وأفكاره ومشاعره يجب إصلاح فسادها قبل أن يكون إفساداً لعقليات هذا الشعب وأفكاره ومشاعره جميعاً .

ولست بمستطيع أن أزعم نفسى أنى خلقت فى كتابى هذا للناس خلقاً جديداً أو أنى طلعت عليهم بفجر لم يشرق عليهم نوره من قبل. فكل ما فى الكتاب يحسه المصريون عامة والمعلمون والمتصلون بوزارة المعارف خاصة .

وإنما الذى أثق فيه ثقة لا يمسها شك أن هذا الكتاب تصوير صادق وصريح لبعض ما فى المعارف من أوضاع خاطئة ، أو تعبير صادق وصريح أيضاً عما أحسست به من شعور نحو الذين لقيتهم جميعاً فى طريق . .

طريق الطويل الشاق نحو النور .

طريق وطريقك أنت ، وكل من وهب عمره وروحه ليكون معلما لهذا الشعب الطيب المسكين .

فالجديد فى الكتاب إذن هو الصراحة والصدق ، فما من شك فى أن ما أعرض له من صور قد صادف آلافا غيرى من الزملاء وما من شك أيضاً فى أن الأشواك التى تدمى قدمى فى هذا الطريق قد أسالت الدماء من أقدام الساعين مثلى .

ولعلك الآن مشفق علىّ من قبل أن تقرأ هذا الكتاب . . .

مشفق من بعض النفوس المريضة الهابطة التى تكاد الدعوة إلى الخير تصم آذانها . ولعلك تخشى أن يصيبنى منها أذى أو كره ، ولعلى كذلك أيضاً قد طاف بى خاطر الاشفاق من الأذى والكره ، بل ولعله قد أصابنى بعض ما تشفق علىّ منه والكتاب لما يزل بين أيدى طابعيه .

وسرعان ما قتلت هذا الخاطر المرتعد بقلم لا يخفى ما يحركه ولا يخاف من الصراحة به ، وهذا أنا أتقدم بالكتاب إلى كل زميل أجهده الطريق الشائك لعله وأجد فيه من الجرأة والصراحة ما تستجيب له رغباته الحبيسة فى الإصلاح والخير .

وإنى أعلم تمام العلم أن لدى القارئين لهذا الكتاب جميعاً رصيداً من الأفكار والآراء والصور سوف يعين نفوسهم جميعاً على على الوعى بمكنون كل لفظ جرى به قلمى .

تصدير

نحن معاشر المثقفين من أبناء هذا الجيل نتحسس الكثير من الفرقة والتناحر بين طبقات هـــذا الشعب. توشك أن يفتتن بها المصريون جميعاً .

نعم : وتلك حال بغيضة منكرة شقى بها المصريون زمناً طويلا ولا يزالون يشقون .

فمن أشاع هذه الفرقة ؟

بل من أحكم تدبيرها ؟

ومن دس فى طيب الأرض هذا الخبث ؟

ثم من هو الجانى الأثيم ؟

قد لا ندرى الآن وسوف يدرى التاريخ .

والذى ليس فيه شك أن يوماً ولى فيه « دنلوب » أمر معارف المصريين كان أحلك الأيام ، وأشدها فى تاريخ البلاد سوادا .

لقد ألغى هذا الآثم مصر فى لغة المصريين وقلوبهم وعقولهم جميعاً ، وأذلَّ أعناق الحريصين ممن عاصروه ، ولقد اسعده الحظ مع الأسف الشديد فعثر فى سقط النفوس على كلاب من البشر سعدوا مع الغاصبين فى بؤس أهليهم !!

والحق أن ولاية « دنلوب » لأمر معارف مصر كانت شراً على المصريين من ضرب الاسكندرية فى يوليو .

والحق أيضاً أن لو لم يظهر « دنلوب » لكان للمصريين فى التاريخ الحديث شأن غير هذا الشأن .

ولكن حيوات الأمم والشعوب كحيوات الأسر والأفراد تسير بمشيئة عليا ، وتجرى على قدر .

وها نحن أولاء نلتقى بالقدر السعيد على وعى جديد وفجر ضوؤه لمّاح ، نلتقى به بين الزملاء من المثقفين على نفوس فتية آمالها شماء، نفوس ولدت مع النور منذ فجر الثورة فما تنفك تتململ حين ترى ظلاما ، نفوس تصطرع فى احناء أصحابها تشكوا الفساد وتود لو خلصت إلى الإصلاح .

على هذه النفوس الفتية ـ نفوس كرام الزملاء من المثقفين ـ وقفت مصر آمالها وعلى هذا الوعى الرشيد اليقظ تركت قضاياها .

فليستشعر الزملاء مكانتهم ، وليثبتوا فى جلادهم حتى تخلص للمصريين معارف مصر وحتى تعلن على الملأ نظافتها من آثار الطاعون الدنلوبى المروّع ومن صنائعه الأرذلين الذين ربوا على طريقة yes Sir .

وبعد : فقد تكون مقدمة البحث غير أليفة إليه، ولكن مزيجاً من

قلق الشباب وضيقه ، وأساه، واضطرام نفسه بالحس الرهيف ، والتوثب الدافق ، والإيمان بحق الوطن المظلوم فى الحرية والخير .

كل أولئك قد حدانى إلى أن أطل على الزملاء من زوايا وعيهم الحبيب الرائع راجياً أن يكتب الله لمعارف مصر على أيديهم خير مانرجو .

القاهرة فى ١٩٥١/٨/٦

عبد الصبور مرزوق

وجهتا نظر :

يتناول كثير من المفكرين - سواء منهم من ولى وزارة المعارف ومن لم يلها - يتناولون سياسه التعليم فى مصر وما يجب أن تكون عليه من حيث مبادئها العامة . أولا ثم من حيث وسائلها وغايتها بعد .

ومن هؤلاء المفكرين من يؤمن بوجوب التوسع والتعميم فى التعليم حتى يشمل المصريين جميعاً . ويستمتع به المصريون جميعاً كما يستمتعون بالهواء والماء . حتى تكون استنارة الشعب شيئاً تستند إليه النهضة ، ويفيد فى الخلق الجديد ، وحتى يكون فيه كذلك ضرب من التعويض عن الظلام الذى رسفت البلاد فى قيوده ، وثبت الغاصبون دعاماته وأركانه .

ومن هؤلاء المفكرين من يؤمن بوجوب التضييق فى التعليم . التضييق الذى يتناول من بين المصريين طائفة خاصة يمكن أن تكون قلتها مدعاة للعناية بها ، واقتدار الدولة على النهوض بواجبها وإنتاج التعليم معها ، ورأيهم أن قلة مركزة عالمة مطمئنة أجدى على الدولة من كثرة غالبة من أنصاف المتعلمين .

وكما يتخالف المفكرون حول المبادىء العامة لسياسة التعليم يتخالفون أيضاً حول الوسائل وطرائق التطبيق . فهل الواجب

أن تأخذ سياسة التعليم نفسها بالأناة والروية ولطمأنينة، وتوثيق العلاقة بين حاضر البلاد وماضيها، والوقوف طويلا أمام التقاليد حرصاً على رعايتها. حتى تأمن العثار، وننجو من معقبات الطفرة، ونظل نحتفظ بين شعوب الأرض بطابع تقليدى تمتاز به الثقافة المصرية ؟؟.

أم من الخير أن تأخذ سياسة التعليم نفسها بكثير من الصراحة الجريئة التى تندفع وراء التطور الحازم الخطير غير متعثرة فى قيود الماضى ولا ناظرة إلى الوراء حتى لا تلمح الدولة فى حاضرها المشرق شيئاً من الظلمة الماضية قد تعوق التطور أو تطا من خطاه؟

ومهما يكن من أمر المفكرين المصريين فيما يشغلون به أنفسهم، وفيما يتخالفون فيه. فالذى ليس فيه شك هو أن موضوع الخلاف أمر عظيم الخطر والبأس، جدير بما يلقى من الدرس والتفكير، لأنه يتصل بصميم حياة المصريين جميعاً. هذه الحياة التى بنى علماؤها الأهرام وخلدوا الجسد الفانى على رغم البلى بآلاف السنين. والتى أحنى جهالها ظهورهم لسياط الجفاة البشعين من الترك حتى غدت فرقعات السياط لغة ذات ألفاظ ومعانى لا يتفاهم بها بين خلق الله إلا البغال والحمر وذلك الشعب الذليل.

وموضوع الخلاف أمر عظيم البأس والخطر أيضا لأنه وثيق

الاتصال بالغد المرجو لمصر المستقلة إلى أبعد الحدود ، وبالتعليم وحده يتضح المصير المجهول .

فشكر الله لمن عنوا بالتعليم من قريب أو من بعيد ، وجزى الله المجتهدين فيه أخطأوا أم أصابوا إذ ليس من شك فى أن سياسة التعليم فى مصر ماتزال من أخطر المشاكل التى يجب أن يفرغ لها المفكرون حتى يقدر لمصر أن تطمئن على أجيال جديدة تحمل أعباء الحياة بقوة ، وكفاءة ، واقتدار .

وبعد : فما هى السياسة التعليمية المرجوة التى تمكن للمصريين أن يقضوا على الجهل وأن يتخلصوا منه ، ومن معقباته ؟ وأن يكونوا على قدر من الثقافة مقبول وملائم لتنوير البصائر ، وتثقيف العقليات ، يخلق فيهم روحا وحياة تعينان المصرى على التطلع لما وراء الحاضر من أحداث وآمال . ويهيء لمصر جيلا يأخذ بيدها إلى حيث يجب أن تكون ؟

لعل من الخير قبل الإجابة على هذا التساؤل أن تسارع إلى تحديد مركز التعليم المصرى بين مراحل تطور التعليم العام ، وأن نعرف بعد ماهى الغايات العامة التى ترجى للمصريين من وراء هذا التعليم ؟ .

اين نحن من التطور العام؟

بوسعى وفى شىء من الصدق لا يحتاط ، ولا يتحفظ أن أقرر أنه ليس للتعليم فى مصر موقف يمكن تحديده من بين مراحل التطور العام، وذلك لأن طبيعة هذا التطور أن يبدأ التعليم بالتربية الأدبية القاصرة ثم بالكاملة ثم بالأدبية العلمية ثم بالعلمية فقط ، ثم بالعلمية العملية ثم بالعملية ، وقد يفنى بعض هذه المراحل فى بعضها الآخر بفعل مؤثرات إضافية من طبائع البيئات والشعوب ولكنها على أى حال مقاييس صادقة فى تحديد مكان الثقافة فى الأمم المتمدينة .

وإذا راجعنا الأوضاع التعليمية فى مصر ، وحاولنا تحديد مكاننا من مراحل التطور عز علينا ما نريد ولقينا من سعينا نصبا والتحديد الصادق للمرحلة التى تطورنا فى تعليمنا إليها هو أن ليست لنا مرحلة معينة وأن لدينا تشكيلة نادرة من جميع المراكات والمراحل .

الأمر الذى ليس من المغالات معه أن نقرر أن التعليم المصرى فى القرن العشرين ما يزال يعانى أشد الاضطراب وأخطره ، وأن المتعلمين الآن يعانون طائفية منكره لاجنى لهم فى اصطناعها وإنما جناها أن الذى أنشأ جامع الأزهر غير الذى نظم التعليم

الأولى ، ولو كانت السياسة التى أنشأت الجامعة المصرية فى الحاضر نفس السياسة التى أشرفت على إنشاء « الانكشارية » فى الماضى التى لكان لهذا الشعب الكسير وضع غير الذى ترى ولعنة الله على السياسة العامة وعلى أصحابها حين رموا بسياسة التعليم بين الرياح الهوج.

فى الوقت الذى وصلت فيه بعض أنواع التعليم المصرى إلى ما يقارب أرقى مراحل التطور من حيث الأخذ بالتربية العملية لجميع المدارس والمعاهد ، والكليات التى يستمد طلابها ثقافتهم من التطبيق والعمل دون النظر والبحث ،

أقول فى هذا الوقت نفسه ما تزال بعض أنواع العليم عندنا فى أولى مراحل التطور لم تبرحها وما يزال الكثيرون من أبناء الشعب تحشى عقولهم بثقافة بدائية ليس فيها غناء ، وما تزال التربية الأدبية القاصرة نظاماً خالداً عتيقاً يحتفظ به الأزهر الشريف حتى الآن.

وما بقيت عندنا ألوان من التعليم لما تزل فى مرحلة تطورها الأولى ، وما دام الموقف التعليمى فى مصر يشوبه هذا الاضطراب فليس بدعا أن تطل الطائفة بين المثقفين برأسها البغيض ومعقباتها المنكرة التى لا يعلم إلا الله وحده مدى خطرها على استقرار المستنيرين .

وإن من الخير لمصر التى تتوقى الفتن ما استطاعت أن تراجع سياستها التعليمية السابقة وتقوم مافيها من عوج ، وأن تركز أقدام

النهضة الشاملة على أرض طيبة مرساة زراعها راشدون .
فلتبن سياسة المستقبل على سنة التطور بالتعليم من أسسه الأولى ، ولنتابع السير فيها وفق المراحل العامة حتى تنتهى إلى الغاية السامية التى نرجوها ، ولن نعوق من تقدموا ولكننا سننهض بالمتخلفين .

وإن من الخير لمصر وللتعليم المصرى ولتدعيم النهضة المقبلة على ذات قرار مطمئن ، من الخير أن يفتح الساسة أعينهم على المثل الحية الناطقة فى دول العالم المتحضر التى استوثقت من الأرض بأقدامها ثم سارت لاتهزها الأحداث فلتتأثر ـ سراعا وبإيمان ، وفى غير تردد ولا شك ـ خطى السياسات التعليمية فى العالم المتحضر ولنفد من كل قوة ملائمة لبيئاتنا ومستوياتنا فيها فقد بنت هذه الأمم سياستها على أساس من طبيعة الأشياء فبدأت من حيث المكان الطبيعى للبدء ثم تدرجت فى نموها السليم كما يتدرج الكائن الحى خلوا من الآفات .

غاية التعليم فى مصر

أو من أعمق الأيمان بأن أقصى غاية ننشدها لمصر من وراء هذا التعليم ، أن يصل بالمصريين لمثل ما وصلت إليه حضارات العالم القوى فى أرقى مظاهرها .

وباستطاعتنا أن نحدد الغاية مبدئياً ، وأن نوضح الأهداف العامة التى نرجوها من ورائه حتى يقدر لنا وضع أسسه ومبادئه على ضوئها ، وحتى تكون ملائمة لهذه الغايات ، والأهداف وموصلة إليها .

والغاية المحلية للتعليم أن يهيء للمواطن المصرى أن يكون عضواً صالحاً فى المجتمع يستطيع العيش المناسب المقبول بوسائله المقبولة المناسبة التى ترفع من شأنه ، وترقى بمستواه المادى والأدبى ومن ثم بمستوى المجتمع الذى يعيش فيه .

وتمشياً مع طبائع الأشياء والأحياء أن تخضع سياستنا التعليمية لطبيعة التطور العام بمعنى أن نأخذ كل تربية من التربيات الموجودة عندنا من حيث انتهت ، ثم نسير بها فى طريق هذا التطور حتى نصل بها الغاية ، وأى محاولة لإصلاح التعليم تخالف طبيعة الأشياء مصيرها ، ومصير التعليم معها ما نشهده من الفوضى وما يزال مثار الجدل والاضطراب ؟

أدواء

١ — عدم الاستقرار

وأخطر هذه الأدواء وأكثرها شراً على التعليم ألا تعرف البلاد له سياسة مستقرة .

نعم : ولن نستطيع وضع العلاج الصحيح لسياسة التعليم أو بعبارة أدق لن يقدر لسياستنا التعليمية أن تعطينا ما نريد منها إلا إذا ضمنا لها الاستقرار وإمكانية التنفيذ وإلا إذا بعدنا بهذه السياسة عن الارتجال والقفزات والتصرف السطحي حتى نستوثق من أننا ستتم تشييد البناء بعد وضع الأساس .

أما هذا الذي شهده تاريخ السياسة التعليمية منذ بدأ لها في مصر تاريخ من القلق والاضطراب وعدم الاستقرار والتناقض فشيء طبيعي لا ينتج إلا مثل ما نحن فيه أو شراً منه وذلك لأن الحزبية المصرية البغيضة تقلب أولي الأمر من أصحاب الاتجاهات التعليمية المختلفة على التنفيذ دون أن يقدر لأي من هؤلاء أن يسير في سياسته حتى شوطها الأخير وحتى يرى الناس مبلغ ما يفيد التعليم منها ومبلغ ما تنتج من تقدم أو نكوص ودون أن يقدر لأي من الاتجاهات التربوية أن يبلغ ما يراد له . وطبيعي ما دامت السياسة العامة تسيطر على سياسة التعليم . طبيعي أن يتخذ لونها ويخضع لظروفها وأن ينقض الخلف ما بدأ السلف

وأن يهدم المتأخر ما شرعه المتقدم والنتيجة المحتومة هى إنتقاض التعليم وتصدع هيكله العام وما وراء ذلك من بلبلة للأفكار وسلب الأمن من نفوس المثقفين وإشاعة الفوضى وعدم الثقة فى نفوس الناس ، وليس من اليسير أن ننظر إلى هذه المشكلة نظرة عابرة ، فهى فيما نرى أخطر المشاكل التى تمس كيان الشعب . فالمعلم الذى يفقد إيمانه بقادته لايستطيع أن يجد فى نفسه فيضاً ينشر به الإيمان فى تلاميذه ، والدولة التى لا تعرف استقراراً لوضع من أوضاعها لا يستطيع أفرادها أن يحددوا مواقفهم . من نوع التعليم الذى يختارونه لأبنائهم ، فلعل خلافا سياسياً ، أو تغييراً للوزارة يكون سببا فى أن يصبح الذى ربى فى الجامعة أتعس حالا أمام الدولة ممن ليس له فى الدولة مؤهل عال ولا وطيء .

كما أن حرية الرأى والبحث الفكرى لما تنضج عندنا بعد . حيث لا نزال نرى . كل مدرسة تربوية تعلن حربها الشديد العنيف على المتخرجين من مدرسة تربوية أخرى ؟ .

وكان الأجدر بنا أن تصطرع عندنا المبادىء والأفكار ، ويشتد الجدل والتنافس بين نظريات التربية حتى يقدر للمنتج الملائم منها أن يدوم ويبقى بدل أن يكون الصراع بين الذين ربوا فى هذه المدارس ولقنوا هذه النظريات .

كان الأجدر أن يكون الصراع حول سياسة التعليم صراع

نظريات ومبادىء ولكن روحا بغيضاً مايزال يرف على وزارة المعارف منذ أيام « دنلوب » يحمل إليها البغضاء ويشيع فيها الشقاق والفرقة . حتى لنكاد نرى أبناء المعهد الواحد الذين صيغوا على طريقة واحدة ، وربوا فى ثقافة واحدة نراهم يبرأ بعضهم من بعض ، ويتسامى بعضهم على بعض ، ويحاول كل منهم أن يتخذ لنفسه أسبابا يستشعر بها التميز على الآخرين . فتستمع منهم إلى حديث عن النظام الحديث والنظام القديم حتى لكأن مجرد اختلاف الأساتيذ على الطلاب مما يبرر لهم أن يختلف بعضهم على بعض .

هذا روح غريب لانلمح وراءه إلا شراً لا يدلنا فى اصطناعه ، ولكنه من مخلفات جيوش الاحتلال . والرأى عندنا للخلاص من هذه المشكلة البالغة الخطورة أن تفصل سياسة التعليم عن سياسة الدولة فصلا نهائياً كما فصل مجلس الدولة وتصبح كالمستقلة فى كل شىء .

ولتحقيق هذه الفكرة تجب إعادة النظر فى تأليف مجلس التعليم الأعلى . على أساس أن يكون ممثلا لجميع المدارس التعليمية ذات وجهات النظر التربوية المختلفة المحدث منها والقديم ، والتقدمى منها والمحافظ . ثم تكون مهمة المجلس الأعلى تخطيط السياسة العامة ، وتحديد مبادئها .

ويجب على الأحزاب جميعاً الاشتراك فى وضع ميثاق تعليمى توضح فيه المعالم الرئيسية لمستقبل التعليم ثم يوضع هذا الميثاق

فى صورة قانون يتخذ لنفسه قداسة الدستور بحيث لايجوز تعديله أو تبديله مهما تكن الظروف والأسباب إلا بعد مضى مرحلة تعليمية كاملة من مبدئها إلى نهايتها .

٢ — مركز المعلم فى الدولة :

أسوأ المراكز وأحطها وأدناها .

هذا هو الواقع الذى لا أخدع فيه ، ولو اتفق جميع الشعراء على أن يقفوا لجنابه تبجيلا ويقولوا فى حقه كاد المعلم أن يكون رسولا .

فما رأيت ولن أرى معلماً يقف له أحد من المصريين يوفونه التبجيل . إلا إذا استثنينا صغار الجبناء من التلاميذ الذين لايقفون لجنابه إجلالا ، ولكن خشية سخطه وعصاه .

وما أرانى بحاجة إلى أن أشرح للزملاء مأساة وضعهم الأليم ، ولا أن أتعرف مواطن الضيق من نفوسهم ، فكلهم ضائق ، وكلهم ذو شكاة ، وكلهم يحس أنه بعيد عن الدولة غريب عن أهلها ، وإن الدولة تحسده إن أصابه خير . وتلومه وتعنف به ولا تلمس له عذرا إذا أصابه شر .

وكنت أحب أن يكون المعلمون مصابين بالخير ، ولو أثاروا حسد الدولة من أقصاها ، إلى أقصاها ولكن أنى لهم ؟ ! فكل

المعلمين مع الأسف الشديد يعلمون أن اسم الجنس الذى يجمعهم منذ كان فى مصر تعليم لم تخلع عليه إلا صفات اللوم والتعنيف وعدم التماس العذر .

نعم : فالمعلم ملوم أمام التلاميذ وآبائهم ودولتهم ولا يجد من ينصفه. فإن أخفق التلميذ فالمعلم ملوم فإذا قلنا لماذا ؟ زعموا أن المعلم لم يمر على التلاميذ فى منازلهم ليتفقد مايفعلون ، وكان عليه أن يفعل ، وزعموا أنه لم يوصلهم إلى هذه المنازل ليأمن ضياع وقتهم فى الطريق وكان عليه أن يفعل .

وزعموا أنه لم يخرج لاصطيادهم من الطرقات حتى يحميهم من الغياب والتأخير وكان عليه أن يفعل .

وزعموا أنه لم يستطع أن يحول بين التلاميذ ، وبين الاضراب والفوضى ، وكان عليه أن يستطيع .

وزعموا أن كثيرين من التلاميذ قد مرضوا فحرموا نور المعرفة وكان عليه ألا يمرضوا .

فإذا قدر للمظلوم مع جميع أسباب اللوم التى أسلفنا ، إذا قدر له أن تنجح من تلاميذه كثرة غالبة لامروه على نجاح هذه الكثرة بسبب سهولة الأسئلة حتى لكأن عليه كذلك ألا ينجحوا ، والمعلم ملوم أمام الدولة إذا استشعر الظلم وأحس عذابه فشكا ،

فإذا سألتهم قالوا أليس يربى الجيل ويعلم شباب الأمة ؟ أليس هو المثل الأعلى للوطن الجديد ؟ ففيم شكاته . وفيم تمرده ؟ أيريد أن ينشر الفوضى ويهدم كيان الدولة ؟ ولن يخلص المعلم من لومهم العنيف الشديد إلا إذا آمن معهم بأن رسالته أن يحمل نفسه وتلاميذه على الخزى ، والأذعان ، والفرح بالموت كمدا تحت حذاء السلطان .

والمعلم ملوم حتى لو كتم شكاته وحبس آلام نفسه فيها .

فانا سألتهم قالوا : وكيف يسمح لنفسه بأن تتألم ؟ ولم تؤذه الدولة بعد بمثل ما أوذى « محمد » ولم تقتله ولم تصلبه كما صلب « عيسى » ؟

ألا قبّح الله وجه الأمة حين لاتستحى، وأعان المظلومين على التخلص من ظالميهم فيها .

هذا الواقع السخيف المر يعرفه الزملاء ، ويحسون سخفه ومرارته ، ولهـــذا لست أجد حاجة فى أن أتحدث إليهم عن الوضع الأليم .

ولكنى سأخز هذه الدولة بقلبى وخزاً شديداً حتى تحس مكانى .

سأخزها بنفس القلم الذى أعالج به أعمال أبنائها مصوباً ومعلماً ومربياً وأميناً .

ساعلم الحاكمين كباراً كما علمتهم صغاراً أنى الذى استقبلتهم فى مطلع التاريخ جهالا وأغرارا وأطفالا ضعاف العود . فغذوتهم بدمى نوراً ومعرفة وإيمانا وقوة . ومنحتهم روحى رشيداً يقود صباهم الضال إلى الشاطىء المأمون .

فإن رعوا لى جميلى فليس ذلك منّة .

وإن طغوا وتعالوا فالويل للجاحدين .

فلتذكر الدولة إن كانت الدولة قد نسيت أن المعلمين أساتيذها الدائمون . إن رضوا عن الدولة بدلوا يأسها رجاء وظلامها ضياء ، وضعفها قوة . وإن سخطوا عليها وأسأل الله مشفقاً حذراً أن يعين الحاكمين على تجنب هذا السخط . إن سخطوا عليها فلن تطيق سخطهم ولن يكون لها به قِبَل .

وعلى الدولة ألا تخدع فى ماضيهم الوقور الصابر ، وألا تطمع كثيراً فى هذا الماضى فلرب ذى غفلة قد أيقظته الليالى ، ولرب ذى حلم تطيش بلبه الأحداث .

٣ — الجسد المنهوك :

يستعمل علماء التربية فى وصف مهنة التدريس نفس اللفظة التى يستعملها قضاة محاكم الجنايات فى وصف أقسى الأحكام التى يستحقها المجرمون . فكما يحكم القاضى على المجرم بالحبس مع الأشغال الشاقة يحكم رجال التربية على المعلمين جميعاً بأنهم يعملون فى المهنة الشاقة ، وإذا كان فى الأحكام الشاقة ماليس مؤبداً وكان فيها يقبل التخفيف . فليست مهنة التعليم إلا شاقة مؤبدة ليس فيها مايقبل التخفيف .

وأظن أن قارئى أحس بنفسه من هم أصحاب الجسد المنهوك ، وأنه قد عرفهم من غير أن أدله عليهم. إنهم الكادحون المغمورون الذين شقوا بالمهنة وتحرقوا فيها .

وأنا لست ممن يبالغون فى تقدير الحقائق ، ولا مما يقولون بغير فهم ولا دقة ، ولكنى ممن يستطيعون تحدى الدولة بأجمعها أن تدلنى على معلم غير ذى جسد منهوك .

والأسف الشديد أن المعلمين لم تنهكهم بيوت آبائهم، ولم تثقل كواهلهم بالهم والحزن فأنى أعرفهم جميعاً فى حيوات دراساتهم ، أعرفهم طلاباً مرحين بأسمى الثغور منطلق الأسارير ينامون ملء عيونهم ، ويتمتعون ملء رغائبهم ، ويطلقون نفوسهم فى

كل واد سعيد لتعب من مجراه . وأعرفهم حين خدعهم القدر الساخر فابتاعوا الصفقة الخاسرة فى كل سوق ، فكانوا معلمين . ثم أعرفهم جيداً ، وقد تقدم ركب الحياة بالأحياء جميعاً وظلوا هم حيث بدأوا .

أعرفهم وقد نما جميع زملائهم فى الدرس وانتعشوا حسا ومعنى ، وظل الأساتيذ الخالدون فى مواقفهم لينقصوا لا ليزدادوا .

ظلوا يلاقون الأسى ألواناً حتى أترعت قلوبهم من فرط الأسى فذوت .

وظلوا يرقبون آمالهم تتهاوى فى الخضم الصاخب ، أملا يذوب فى محيط الحياة بعد أمل حتى أعياهم التطلع فارتدوا بالأعين الثكلى وبالطرف الحسير .

ظلوا يطمعون خيراً فى الغد المجهول ، وصبروا ، ولم يظفروا ، فانطووا على الحسرة الكبرى بجناح مهيض . أعرف المعلمين ، وأعرف أنهم لا يشكون ، ولكن حالهم يشكو .

إنهم يدفعون ثمن الصبر على الشقاء من دمائهم وأعصابهم حتى أشرفوا على الإفلاس دما وأعصابا . ان مهنة التعليم — بسبب ما يقاسى المعلمون — مهددة بخطر الازدراء الاجتماعى الذى

يسبب التآكل والانقراض ، وسوف يجيء اليوم الذى تبحث فيه الدولة عن المعلم فلا تعثر عليه لأن العقلاء سوف يتعظون بغيرهم فلا يرتضون مهنة أهلوها ضائعون ، ولأن المعلمين أنفسهم يحاولون مشفقين إنقاذ الشعب من التورط فيما شقوا به وقد بدأوا فعلا بأبنائهم ، وأهليهم فحالوا دون أن يكونوا معلمين لأن الدين النصيحة .

ولأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين . وحتى لايقول ابنه هذا جناه أبى على . فما يطيق المعلم أن يحمل الآلام حيا وميتاً .

فلتنتبه الدولة للخطر الداهم . ولتحذر الفتنة القاسية ، ولتنظر إلى هؤلاء الفعلة النظاف بعين من حنان فإنهم كمصريين لهم بمقتضى الدين والعرف والدستور جميع حقوق المواطنين . إنها إن قصرت فسوف تعض إصبع الندم .

٤ — مكاتب التفتيش :

وإذ أتحدث عن مكاتب التفتيش فلست أقصد إلى الحديث عن المفتشين . وإنما أقصد إلى هذه الحفنة المعدودة من أكابر المفتشين التى تقتعد مكاتب الوزارة تأمر وتنهى فقط لأنها تحب أن تأمر وتنهى ، وتنقل المعلمين من أسيوط إلى رشيد فقط لأنها أحبت أن ينقلوا من أسيوط إلى رشيد ، وترقى بالقواعد

والقانون إذا أحبت القواعد والقانون وترقى كذلك بغير القواعد والقانون إذا لم تحب القواعد والقانون .

إنى شديد السخط على جميع مكاتب التفتيش التى تضع المعلم فى المكان الذى لا يريحه ولا يرضيه . وشديد السخط على مكاتب التفتيش التى تنتزع من قلب المعلم أمنه وقراره .

إنى أتهمها بالتفريط فى حق الدولة ، وأتهمها بالجناية على النشء وإنى أحملها مسئولية عدم إخلاص المعلم لعمله وللدولة ، وأحملها مسئولية برمه بالتعليم وضيقه لرؤية التلاميذ . وما يستتبع ذلك من أزمات نفسية يتبادلها الطرفان وكلها خطر على التعليم .

إنى أطالب بتحميل مكاتب التفتيش جميع معقبات ما يحدث من جراء تصرفاتها السوء .

وليتفضل أنصاف الآلهة من حضرات أعضاء هذه المكاتب فيتصوروا معى مشهد زميل من الزملاء مصاب بداء يمنعه من ارتياد الأماكن الرطبة فضلا عن الإقامة فيها .

ليتصوروا مشهده معى وقد أصدر أصحاب الهيلمان من أعضاء هذه المكاتب أوامرهم المقدسة بنقله إلى « الإسكندرية أو بلطيم » فى الشتاء القر .

ليتفضلوا فيتصوروا معى حالته النفسية فى ذلك الظرف ،

وماالذى يتردد فى صدره من آلام وماالذى يعتمل فى رأسه من خواطر ، وما الذى يطالع عينيه فى صفحة المستقبل ، ثم ليطلبوا إليه بعد أن يشرح لتلاميذه درساً يتحدث إليهم فيه عن مزايا العدل والإنصاف . ومنافع الحلم وضبط النفس ومكارم الأخلاق .

إنى أفهم أنها مكاتب تفتيش لا محاكم تفتيش . وأفهم أن تكون مهمتها إنسانية اجتماعية قبل أى شىء آخر . أفهم أن تبحث عما يريح الخواطر فتؤثره على مايثيرها وتقصد إلى مايرضى فتؤثره على مايسخط ، أفهم أن تكون هذه المكاتب لحماية المعلم من التلاميذ ومن أولياء أمور التلاميذ بل ومن الدولة نفسها لا أن تكون عوناً لكل هؤلاء عليه . إنى أطالب بتغيير سياسات هذه المكاتب فوراً على أن تكون فى خدمة المعلم لا فى خدمة التعليم . فإن خدمة التعليم هى ما يقوم به المعلمون إذا رضوا عن مكاتب التفتيش .

٥ — نظام التفتيش :

وأخيراً جاء دور حضرات المفتشين لنضعهم بين أدواء سياسة التعليم .

وأبادر قبل الحديث ، فأبعث بالتحية الخالصة إلى أشخاصهم جميعاً كآباء موقرين لهم علينا واجبات السن وفوارق العمر . فأشخاصهم تلك موضع احترامى ، وتقديرى . بل ومحبتى أيضاً ،

أيضاً ، فكل الذين نعرف من حضراتهم كرام محبوبون موطنوا الأكناف يألفون ويؤلفون . فليست أشخاصهم إذن موضع المس والتناول — ولكنى سأعرض بالنقد البرىء الخالص لهذا النظام الفاسد الذى يمثله لسوء الحظ حضرات المفتشين .

أولا : كيف يختار المفتشون ؟

لعل أول ما يتبادر إلى الذهن أن أساس الاختيار هو العلم . فإن وزارة المعارف مؤمنة بأن العلم مادخل فى شىء إلا ركز بناءه وحفظ اتزانه ، وضمن تقدمه ، وهى مؤمنة بأن العلم ما ظهر فى الوجود إلا توارى أمامه الجهل والضعف وفساد النفوس جزعا وإشفاقا ، وهى مؤمنة بأن العلم ماكان مقياسا لعمل إلا رضى الجميع عن حكمه ، وأذعنوا لقراره . هى مؤمنة بهذا كله فهى لذلك أولى الناس بأن تجعله أساس تقديرها واختيار رجالها فتؤثر للتفتيش من معلميها كل غزير موفور يستطيع أن يشارك ويوجه ، ويفيد من لم يكن فى طوقه من قبل أن يستفيد .

لعل ذلك أول ماقد يتبادر إلى ذهن القارىء الكريم لأنه الشىء الطبيعى الذى يمكن تصوره ولكنك سوف تجزع أشد الجزع ، وتشفق أشد الإشفاق — بل وسوف أجر عليك تشاؤماً شديداً حين أقول لك : إن العلم يا سيدى ليس أساس اختيار المفتشين

وإنما الأساس الجهل . ولا يضيقن قارئى بهذا الذى يسمع ، ولا يبتئس به ، فوالذى نفسى بيده لأنا أكثر ضيقاً بهذا الذى أقول من حضرات المفتشين أنفسهم ، وكم كان بودى أن تكون الحقيقة شيئاً غير ماقررت ، وكم حاولت إشفاقا على مشاعرى أن أثنى القلم عن هذا الذى كتبت .

ولكن !! ماحيلتى وقد أرادو اقع وزارة المعارف لحضراتهم أن يكونوا كذلك ، ورضوا هم بهذا الواقع ، بل وفرحوا به ، واطمأنوا إليه ؟؟ .

ما حيلتى ووزارة المعارف لا تختار المفتشين إلا على أساس مضى المدة، وبقدر مايعمر الرجل فى المهنة بقدر مايفوز بالتفتيش ، وكما يقول مفتش الصحة عند استخراج شهادة وفاة لميت عجوز « إن الوفاة طبيعية » يسأل رجال الوزارة عن عمر المعلم فى المهنة فإذا قيل من المخلدين كانت ترقيته إلى التفتيش طبيعية كذلك .

فكأن وزارة المعارف فى هذا الأمر ملك الموت مع فارق هام هو أن عزائيل يختار للقاء الله من الشبان، ومن غير المعمرين أما وزارة المعارف فلا تختار للتفتيش أحداً من غير المعمرين .

ما ذنبى إذا كان الإنسان فى خريف العمر - وهى السن التى يختار فيها المفتشون - عزوفا بطبيعته عن كل مايتعب عقله ،ويكدُّه ويضنيه ، ميّالا بهذه الطبيعة نفسها إلى ضرب من الكسل العقلى

والبطالة الفكرية ، مكتفياً من الثقافة بما يقرأ هو . أو ما يقرأ له من خفيف الجرائد والمجلات ؟ .

وما ذنبي أيضاً إذا كانت النفوس تشيخ كما الأجساد ؟ وإذا كانت الألمعية تخبو كما يغيب الضوء .

ثم ما ذنبي إذا كان بعض الانجليز يقولون وهو حق إن من أمضى ثلاثة أيام لم يقرأ خلالها شيئاً مفيداً فلا بد أن يقول شيئاً تافها . فما بالك بمن أمضى ثلاث سنين . أو من أمضى بقية عمره منذ أصبح من المفتشين لم يقرأ شيئاً ؟ ! !

صحيح أن بعض النفوس تحتفظ بحيويتها مدى حياتها ، وتظل شابة أبد السنين ، وتلك من غير شك نفوس العباقرة الخالدين .

فهل حضرات المفتشين جميعاً عباقرة ؟ .

الجواب بالطبع لا ! ! والنتيجة أنهم فى خريف العمر جشعون حريصون شغلتهم أموالهم وأهلوهم ، وأن عهدهم بالدرس فد انقطع ، وأنهم لايجددون معلوماتهم بالاطلاع ، وأنهم لايقراون غير الصحف تسلية فى الأندية ، فهم إذن خطر على التعليم لأنهم بعيدون عن العلم .

ثانياً : وكيف يفتشون ؟

وتلك فيما يبدو للكثيرين مسألة دقيقة حساسة ربما تحرج القلم عن التعرض لها . فقد تظن الدولة أنى كمعلم لا أستطيع أن أكون موضوعياً فى نقد طرائق التفتيش . بمعنى أن نقدى لحضراتهم سوف تنساب إليه دوافع ذاتية خاصة كأن أكون ضائقا مثلا بمفتش ما ، أو ساخطاً على مفتش ما ، أو بينى وبين حضراتهم ضرب من سوء الفهم تكون نتيجته أن أحكم على المجموع بتصرفات بعض الأفراد . وهذا خلط ، إذن فلا يصح للمعلمين خاصة أن ينتقدوا المفتشين فأنهم فى هذا النقد متهمون .

هذا ما قد تظنه الدولة ، وماتتوهم أن بوسعها وقد ظنت بى هذا الظن أن تحول بينى وبين ما اعتزمت . ولكن لتطمئن الدولة كل الاطمئنان على أنى سوف أكون موضوعياً فى نقدهذا النظام ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، ولن أسمح مطلقاً لأى شعور ذاتى بأن ينساب ولوخفية إلى سنان قلمى ، فبوسعى أن أحسن التفريق بين الأشخاص الكريمة التى آلفها وأحبها ، وبين النظام الفاسد الذى أنفر منه وأكيد له .

لتطمئن الدولة الاطمئنان كله فليس لظنها عندى مكان .

فالكاتب الآن ليس معلماً ، والمكتوب عنهم ليسوا المفتشين وإنما الكاتب الآن إنسان من الناس يسرح بصره فى آفاق رحاب دونها وزارة المعارف بمن فيها ، إنه الآن واحد من أولئك الذين يهيمون فى عوالم الحق والخير والجمال ينشدها جاهداً يبغى النفاذ من خلالها إلى عام سعيد ، إنه يريد أن يبنى .

والمكتوب عنهم ليسوا المفتشين ، ولكنه النظام الفاسد الذى يمثله لسوء الخط حضراتهم كما أوضحته من قبل .

وبعد : فإذا كانت الغاية تقرر الوسيلة كما يقول الناس فما هى الغاية التى ترجوها وزارة المعارف من نظام التفتيش ؟؟ .

هل هى محاسبة نظار المدارس وكتابة التقارير عن شخصياتهم الإدارية ما ضعف منها وما فذ ! ؟

الجواب بالطبع لا : فليس من سلطة المفتشين أن يفتشوا على المدارس إدارياً حتى وليس لهم حق إبداء الرأى فى ذلك . وكل العلاقات بين المفتش وناظر المدرسة أن يقبل الأول على الثانى كما يقبل الضعيف فمن الطبيعى أن يقوم له الثانى بواجبات الضيافة ، فيحييه أحسن تحية ، ويسهل له أداء مهنته حتى إذا فرغ مما يريد ودعه بمثل ما استقبل به .

أم هل هى محاسبة التلاميذ ، وتمييز النشيط اليقظ منهم من

الكسول الخامل . واقتراح عقاب المهملين فى مجلس تأديب ، ومكافأة المجدين أمام هيئة شرف ؟ مهلا أيها القلم . فهذا كله وهم ليس وراءه ظل ، فالحق أن المفتشين ليس لهم على التلاميذ مطلقاً أدنى نوع من أنواع السلطان ، وليس التلاميذ مسئولين أمام حضراتهم بأى لون من ألوان المسئولية عظيمها أو تافهها ؛ وكل العلاقة بينهما أن يدخل المفتش الفصل فيقف التلاميذ إجلالا ، ويسأل المفتش التلاميذ فيجبون تأدباً .

أم هل هى تعرف حضراتهم لمدى استفادة التلاميذ من البرامج والكتب المقررة ، ومدى صلاحيتها لعقلياتهم وملاءمتها لبيئاتهم واقتراح ما هو خير ؟ .

وحتى هذه أقول فيها لا . فهذا واجب المدرسين كما تنطق بهذا فشرات آخر العام .

ماالغاية من التفتيش إذن إذا لم تكن محاسبة النظار، ولا محاسبة التلاميذ ولا نقد البرامج والكتب ؟ لعلها أن تكون محاسبة المدرسين وتقويم كل ذى عوج بينهم !!

وهذا ما تتوهمه وزارة المعارف . وهو وهم باطل والأيمان بصحته أكثر منه بطلانا .

فالمفتش لا يستطيع مطلقاً أن يحاسب المدرس فى أول العام.

اقول هـذا مطمئناً إلى أن هـذا العام الدراسى لا يكون قد أخذ وضعه الصحيح المستقر بعد ، ولا يكون التلاميـذ قد تلقوا من أساتيذهم مايحاسبون عليـه ، ولم يقدم المدرس بين يدى العام مايحتمل النقاش .

وإن صح ما أزعم فعمل المفتش فى هـذه الفترة نصح وتوجيه واتفاق على مبادىء وقواعد تـكون مخالفة الأستاذ لها موضوع الحساب . وهـذا أقرب الأشـياء إلى الطبع . فالمفتش لا يستطيع مطلقا محاسبة المدرس فى أول العام .

إذن فليحاسبه فى آخر العام ما دامت المحاسـبة فى أوله عسيرة غير معقولة . يحاسبه آخر العام حين تظهر نتائج التلاميذ التى تعتبرها الدولة مرآة لمـا بذل المعلم من جهد خلال عامه الدارسى ومقياساً لنوع العناية التى عولج بها التلاميذ . يحاسبه المفتش فى هذه الفرصة عن الذين رسبوا فيم رسوبهم؟ ولم زاد الرسوب عن حده المعقول فى الطبع ؟ ولم قصّـر هو عن غيره ؟ يناقشه الحساب عسيراً فى هذه المسائل كلها على ضوء النتيجة التى حصل عليها تلاميذه ويكون من حقه إذ ذاك بعد الحساب أن يحاكم لأن الدليل ملموس وهو نتيجة تلاميذه .

قد يكون هذا أقرب الأشياء إلى تصور القارىء العادى الذى لم يتصل بوزارة المعارف ولم يكن من معلميها .

ولكنك تعجب أشد العجب إذ تجد هذا الشيء الذى يمكن تصوره لاتستطيع وزارة المعارف أن تتصوره، ولا أن تسلم به. فهى نفسها لاتسمح للمفتشين أن يسألوا المدرسين ولا أن يشاركوا برأيهم فى النتيجة علت أم انخفضت.

فإن علت نسبة الناجحين فالوزارة قد عرفت بذلك من الكشوف التى تتلقاها إدارياً، وفى هذه الحال شكر الله سعى حضرات المفتشين فإن الوزارة قد عرفت ما تريد من غيرهم.

وإن هبطت نسبه الناجحين عن المستوى الذى تقرره الوزارة، واحتاج الأمر مثلا إلى إعادة النظر فى أمر المعلمين الذين أعدوا هؤلاء التلاميذ، وأوصلوهم إلى هذه النتيجة غير المرضية.

فى هذه الحال أيضاً شكر الله سعى حضرات المفتشين فإن هناك إدارة ضخمة فى الوزارة تسمى إدارة الإحصاء والمشروعات أو البحوث والمشروعات لست أدرى تتولى على ما أعلم بالنيابة عن حضرات المفتشين مهمة اقتراح لفت النظر، أو لفته فعلا، أو توجيه اللوم، أو العتاب أو الشكر.

فإذا سألتنى وأين حضرات المفتشين؟ فسوف أجيبك بأنهم ليسوا هنا.

فإذا قلت أنت للوزارة إننا لم نجد المفتشين فى أول العام، ولم

تجدهم فى آخره فأين ذهبت بهم ؟ أجابتك الوزارة بكل اطمئنان وثقة . إنهم موجودون بين أول العام وآخره .

شكراً لوزارة المعارف فقد دلتنا على مكان حضراتهم . شكراً مضاعفاً على تسهيل مهمة الباحثين عنهم ، فقد عزّ على الوزارة أن تفتقد رجالها فى أول العام أوفى آخره ففالت مطمئنة إنهم موجودون بين أوله وآخره .

وأنا مصدق لوزارة المعارف مطمئن لما تقول ، وأنا ممن يقولون بلى ، ولكنى ممن يحبون أن تطمئن قلوبهم . فلتسمح لى وزارة المعارف بالبحث عن حضرات المفتشين فى خلال العام ، وليتفضل القارىء الكريم ـ معلماً كان أو غير معلم ـ ليتفضل بمشاركتى فى هذة المهمة الشاقة الدقيقة . أو بمراقبتى فيها على الأصح حتى لا أضل ولا أتجنى ، وحتى يستطيع بعد أن ينتصف لى من الوزارة أو ينتصف للوزارة منى .

للتفتيش دورات ثلاث خلال العام . إحداها فى أوله ، والثانية فى منتصفه ، والثالثة قرب نهايته .

وأما الدورة الأولى فهى عندنا غير ذات موضوع كما يقولون لأن المفتش لا يحاسب المدرس وإنما يعقد معه الاتفاق على شروط الحساب مبدئياً فيوجهه ويرشده ، ويلقى إليه تعليماته التى يدور حولها الحساب فيما بعد ، وتكون مخالفتها موضوع المؤاخذة واللوم .

وأما الدورتان الثانيـة والثالثة فهما موضوع البحث ـ وفيهما يوجد المفتش ، وتحس بوجوده وزارة المعارف ، وفيهما تتحقق الغاية من وجوده . وهى مناقشة المعلمين الحساب كما تريد الوزارة .

ألا : إن وزارة المعارف ساذجة طيبة القلب ـ تتوهم فى نفسها أشياء لا أصل ـ ثم تربى أوهامها تلك حتى تكبر ، ويكبر إيمانها بها ، ثم يطلع بها على الدولة كأنها حقائق يجب أن يؤمن بها الناس جميعا كما آمنت وزارة المعارف .

والحق أن المفتشين لا يستطيعون محاسبة المدرسين ، ولا مراقبتهم بأى صورة من الصور ، وبوسع المدرس إذا كان فاسد الضمير أن يلعب بوزارة المعارف ، وبمفتشيها ، وأن يخلص من أحابيلهم . وبوسعه أن يهمل التلاميذ ، وأن يفسد التعليم ، وأن يقضى عامه الدراسى موفور الراحة . ناعم البال ، ولتكن النتيجة ماتكون مادام يستطيع أن يعبث بالمفتشين وبالدولة من ورائهم .

فمثلا إذا كانت براعة المفتش . أن يضبط « دفتر التحضير » فبوسع المدرس أن يملأ له « دفاتر التحضير » علماً حديثاً يزينه التنظيم الجميل ، وسوف يعد المدرس لكل « حصه » واجبها ويضبط تاريخها الهجرى والميلادى ، وسوف يميز « تحضير » كل درس عن الآخر بخطوط حمراء وزرقاء وكل ألوان الطيف ، وسوف

يكتب « بالقلم الجاف ، لتزدان الصحائف ، وتتفتح نفس المفتش ويمتلىء إعجاباً بهذا المدرس « الممتاز » .

نعم : سوف يعنى المدرس « بدفتر التحضير » أكمل العناية ، وسوف يدفع به إلى حضرة المفتش يفعل به ما يشاء ، ولكنه مع هذا سوف يهمل التلاميذ إهمالا شنيعاً ، وسوف يكون عنيداً فى إلقاء الثقافات إليهم لينظر ما يستطيع المفتش أن يفعل به .

سيتوهم المفتش أن بوسعه أن « يطبق » على كراسة التلاميذ ليحاسب المدرس فيها ، وسيأتيه فيها واحداً واحداً ليرى موضوعات الإملاء والإنشاء والتطبيق ، وهل تتفق عددياً مع نسبة العمل التحريرى للعام ؟ أم لا ؟ وليرى أيضاً كيف شرح المدرس لتلاميذه درس « العصفور » ، وكيف رسم ذيله لهم وكيف أملاه عليهم ؟ وهل أتقن العمل وصوب الأخطاء ، أم ترك المسائل فوضى ؟ .

وليطمئن المفتش فما أصاب مَحَزاً فحتى هذه ليست مأزقاً يصعب التخلص منه على صاحب الذكاء العاذى بله المتخابثين الذين يريدون التخلص والهروب .

فبوسع المدرس وقد أعد درسه ، وأثبته فى « دفتر التحضير » بوسعه أن يمليه على التلاميذ إملاء فى دقائق ، ثم يعود إلى مقعده فيضع ساقا على ساق ، ويعكف على « المصرى » يطالع فيه « حركة

التنقلات ، وأخبار « توحيدة العذراء » . فماذا يستطيع المفتش أن يعمل ؟ .

إنى أتحدى الدولة إذا زعمت أن المفتشين يستطيعون أن يغلبوا المدرسين على أمرهم .

إنى أتحداها إذا توهمت أن بوسعها مناقشة المعلمين الحساب .

لا ياسادة المعارف لا : إن شيئاً واحداً هو الذى يستطيع أن يطارد المدرس ليله ونهاره ويستطيع أن يفزعه فى يقظته ونومه : ويفرض عليه أن يعمل ، ويعمل حتى يخر شهيداً .

هذا الشيء الوحيد هو ضميره وإرضاء نفسه .

فإذا توفر هذا الضمير فليست بالدولة حاجة إلى المفتشين .

وإذا لم يكن للمدرس ضمير فحساب الوزارة له أحد المستحيلات.

وإذا كانت الغاية التى تقصد إليها الوزارة من نظام التفتيش لاوجود لها فلم يوجد المفتشون ؟ ؟ .

الوقع الذى يعرفه الزملاء جميعاً أنها أمور شكلية بحتة ، لاقيمة لها فى سير العمل مطلقاً . وكل مافى الأمر أن عمل حضرات المفتشين هو إحاطة المدرسين علماً « بالنشرات » التى تذيعها الوزارة بين الحين والحين . كأنهم فى هذا الأمر « وقائع رسمية » حيَّة . يحاسب المدرسون على مخالفة الأمر بمجرد صدوره عنهم .

ولست أرتضى لثقافة المفتشين ومكاناتهم ، ولا لكراماتهم الشخصية أن يكونوا « سعاة بريد » فهذا عمل يستطيع النهضة به موظفون دون المفتشين ثقافة وسناً ومقاما .

٦ — كتابة التقارير :

أعود فأؤكد ماقررته من قبل أن نظام التفتيش بوضعه الحالى لايخدم التعليم فى كثير ولا قليل ، ووجود المفتش من هذه الناحية لا يكاد يحسه أحد من المعلمين ، ولا تفيد الدولة من ورائه شيئاً . ذا خطر .

وليس يكفى لخدمة التعليم أن يقول المفتش للمعلم إن تلميذك لم يضع « فواصل » فى كتابته أولم يترك سطراً بين الموضوع وبين عنوان الدرس ، وليس يكفى أن ينبهه إلى أن ذيل العصفور فى هذا الشكل جاء طويلا ملليمترين نسبياً ، أو أن مخلب القطة فى شكل آخر قد طال عما يجب قليلا .

ليس يكفى هذا الخدمة التعليم فهذا كله سفساف لاخطر على التعليم منه ولا تأثير له فيه .

وإنما يحس المدرسون بوجود المفتش إحساساً عميقاً حقيقيا ، ويلتمسون رضاهم ، وقد يخشونهم أحياناً ليس للعلم وليس لفوارق السن فإن العلم لايؤذى والسن لاتخيف ، ولكن لأن شيئاً تقليدياً

موروثا أشاع فى نفوس المدرسين هـذا الحس ، وهو أن من سلطات المفتشين « كتابة التقارير » .

وإشفاقا على أعصاب المعلمين ، وعلى أحاسيسهم ، وتقريراً للأمر الواقع أحب أن أهون من خطب هذه التقارير ، فإن تهوين الخطب على أحاسيس المعلمين أحب عندى وآثر لدى ، وأسمى مكاناً فى تقديرى من أن تفزع بأوهام طال الزمن على الخديعة بها ، .

فالحق أن تقارير حضرات المفتشين سـواء كانت مرضية أم مسخطة ليس لها من مصير إلا مكاتب التفتيش . ولمكاتب التفتيش فى الواقع مزاج عجيب لم أستطع تكييفه بعد . فهى أحياناً تعترف بتقارير المفتشين ، وتقيم لها كل حساب إذا كان مزاجها أن تعترف بها وتقيم لها الحساب .

وأحيان أخر ترسلها إلى « مخازن الأرشيف » إذا لذلها أن تبعث بها إلى « مخازن الأرشيف » .

هذه بحذافيرها قصة المفتش الذى تعينه الوزارة بمضى المدة . وتفترض وجوده فى معاهد التعليم فلا يحس بوجوده ناظر المدرسة ولا تلميذها ، ولا مدرسوها إن شاءوا ، وحتى الوزارة التى تعينه ، وتفترض وجوده يلذ لها أحياناً أن تهمل هـذا المفتش ، وتبعث بتقريراته إلى سلة المهملات .

والقصة فيما أعتقد سخيفة مؤلمـة لأنها فوق إساءتها إلى سياسة

التعليم وإلى كرامة الدولة التى تهيمن على التعليم تسىء إلى كرامات المفتشين كأفراد تقدمت بوقارهم السن فليسوا صالحين مطقاً لتأدية الهزلى من الأدوار .

والذى نريد؟

أولا : يجب أن يلغى اختيار المفتشين على أساس مضى المدة ، وأن يكون أساس الاختيار هو العلم الذى تسنده خبرة عملية معقولة مناسبة .

ثانياً : يجب أن تكون هناك دراسات خاصة بحضرات المفتشين يتقنون فيها دراسة فلسفات التربية على أوسع صورها ، ودراسة النفس الإنسانية بنوازعها وعوامل التأثير فيها . دراسة تجعل منهم مستشارين فى حل المشاكل الدقيقة التى يواجهها المعلمون فى معاهد التعليم .

ثالثاً : يجب إلغاء كلمة «المفتش» ، ومكاتب «التفتيش» واستبدالها باللقب العلمى المعبر الموحى وهو كلمة «المرشد» ومكاتب «الإرشاد» .

رابعاً : يجب ألا تزيد مدة «إرشاد المدرس» أى التفتيش عليه» على أربع أو خمس سنوات على أكثر تقدير منذ اشغتاله بالمهنة ، فالمدرس الذى مرعليه «المرشد» طوال هذه المدة لايصح إرشاده (أى التفتيس عليه) بعد ، فإنه صالح بعد هذه الحال لأن يكون من المرشدين .

خامساً : يجب ألا يزيد الفرق بين سن التخرج للمرشدين والمدرسين على ثمان سنوات أوعشر مهما تكن الظروف . بحيث يكون هناك مكان تلتقى فيه العقليتان فى الحس والتفكير أما أن يتخرج « المفتش » عام ٩٢٠ مثلا ، وتصر الدولة على تكليفه بإرشاد عقلية معلى ٥١ ، وتكييفها فهذا مالن يصل إليه منهما أحد .

سادسا : يجب عقد مؤتمرات سنوية فى نهاية كل عام دراسى يستعرض فيها حضرات « المرشدين » أنواع الحالات غير العادية التى صادفوها خلال العام سواء كانت بين المدرسين أم بين التلاميذ ، ويتشاورون فى طرائق علاجها على أضواء الدراسات الخاصة والمعارف المباشرة التى استفادوها من تجاربهم .

٧ — صد الخدمة :

إن أول ما يوحى به هـذا النظام هو أنه اعتراف من الدولة للمدود فى آجالهم بأنهم ممتازون أكفاء .

ونحن نبارك هذا الاعتراف ونسر به كل السرور ونرضى عنه كل الرضى . بل ونبعد فيما نرى فنتمنى على الله أن يملأ الدولة كلها بالممتازين الأكفاء .

ولكننا لا نكاد نفرح بهذا الإكليل الجميل . ولا تكاد ترقى إليه عيوننا وتتمناه قلوبنا .

أقول لا نكاد نقترب من هذا المجد العظيم حتى تنفر نفوسنا أشد النفور ونسخط أشد السخط وتألم كل الألم .

ذلك بأننا نكشف فيه عن شىء مروع وخطير حين نعرف أن كل زهرة من زهرات الإكليل قد أخذت حراما من زارع محروم من بعد ما سقاها دمه ورباها بنور عينيه .

قلت إنى أبارك اعتراف الدولة لأبنائها بالامتياز والكفاءة ، ولكنى أرفض بمنتهى الشدة أن يتم هـذا الاعتراف على حساب الآخرين .

والواقع الآن أنه يتم على حساب الآخرين ، فإن هذا المدمعناه

أن يستمر الممدود له شاغلا للعمل وللدرجة التى هو فيها بحيث لا يجوز أن يرقى إلى هذه الدرجة أحد .

ولما كان المد لا يحدث إلا لأصحاب المناصب الكبرى ذوات الدرجات الكبيرة فإن معنى هذا حرمان جميع درجات هذا السلك من ترقيات يفيد بها أصحابها . وحرمان الفرد من حقه هو فى ذاته عمل بغيض وغير مشروع .

فإن كانت الدولة مصرة على تكريم الممتازين من أبنائها فبوسعها أن تستبقيهم فى الأعمال التى كانوا يؤدونها بوصفهم مستشارين لهذه الأعمال يفيدون بخبرتهم التى تتلاءم وجلال أقدارهم .

أما درجاتهم الإدارية فيجب تسليمها فوراً لأصحاب الحق فيها تجىء أدوارهم فى الترقى بحكم خلو المكان ، وبهذا نقدر الأكفاء والممتازين ونستفيد بهم ، ونراعى فى ذات الوقت حقوق أصحاب الآمال المشروعة فى الرفعة والرقى .

٨ — أنصاف المعلمين :

لم أكن أقدر أن تتابع البحث سوف يكرهنى على الكتابة تحت هـذا العنوان فهو فى ظاهرة إساءة كبرى إلى المعلمين أحطم قلمى إذا أصابه العجز عن محوها .

وإنما كان فى نيتى أن أعقد لهذا الفصل عنواناً آخر هو « إعداد المعلمين » وكيف تتبع الدولة فى هـذا الإعداد نظاماً فاسدا يقود شباب المعلمين إلى هوة سحيقة من الطائفية والخلاف ولكنى لم أجد أكثر تصويراً للمشكلة التى أواجهها ؛ ولا أكثر إشاعة للسخرية المريرة بوزارة المعارف من إثبات هذا العنوان .

والعنوان مؤلف من كلمتين لست أعرف لهما مدلولا فى أى دولة من دول العالم المتحضر ، ولست أعرف بين الراقين من شعوب الأرض شعباً واحداً فيه مايسمونه « إنصاف المعلمين ».

فليس فى انجلترا . وليس فى أمريكا ، وليس فى روسيا ولم يكن فى ألمانيا « أنصاف معلمين » .

أما فى مصر فتستطيع الدولة بكل روية وهدوء أن تضع يديك على المعلمين وأنصاف المعلمين وأرباع المعلمين بل والمعلمين غير المعلمين ، وما شاء الله من هذا المسخ العجيب الغريب الذى تضيق به النفس أثقل الضيق وأبغضه وأقساه .

ماهذا ؟؟ .

إنى لأنكر نفسى أشد الانكار ، وأنفر منها أشد النفور ، وأزدرى المهنة التى أنا فيها ، ولطالما هممت أن أقيل روحى من عثارها ، وأن أخلع عنها رداء التعليم حتى أريحها وأحميها من الزراية التى تلصقها الدولة بالمعلمين .

والمؤلم المشين أنك تستطيع أن تحس هذا الاحتقار الشنيع من وزارة المعارف لبعض الطوائف من معلميها من التصرفات السخيفة التى تتورط فيها هذه الوزارة الحمقاء .

فهى تصر على أن يكون تقديرها لمعلمى الكتاتيب غير تقديرها لمعلمى الأولى ، وتقديرها لمعلمات الرياض وخريجات الأقسام الإضافية مثلا غير تقديرها لمعلمى الابتدائى والثانوى من الجامعيين . واختلاف التقدير ، وما يستتبع من تمايز أدباً ومادة هو مبعث هذه الطائفة البغيضة التى تطل برأسها فتمزق أجسام المعلمين . وتهز التعليم العام .

واختلاف هذا التقدير ، وما يستتبع من تفاوت ، وتمايز هو المنفذ الدنىء الوحيد الذى تستطيع الأيدى النجسة الرخيصة أن تندس من خلاله لتحطم الحركات المكافحة التى يقوم بها المعلمون بين الحين والحين .

واختلاف هذا التقدير ، وما يستتبع من تفاوت وتمايز هو مبعث إنحلال خلقى خطير يتهدد نفوس المعلمين أبناء هذه الدولة

الظالمة التى تزرع الغرور الكاذب فى بعض طوائف المعلمين حين تظل تنفخ فيهم من تقديرها وغررها فتتمدد نفوسهم بهذا الغرور حتى ما تعود تطيقه أعوادهم الضعاف فتهوى وتنهار .

وهذه الدولة الظالمة هى التى تزرع الحقد ، والأسى والانطواء الصاخب المخيف فى طوائف أخرى من المعلمين حين تحرمهم من تقديرها ، وتردهم عن حماها بغلظة وجفاء كأنهم سائلون .

تحديد ثقافة المعلم

والمشكلة الكبرى التى تتحدر إلينا من مخلفات الأثيم « دنلوب » هى أن وزارة المعارف حين تعد معلميها وتصطنعهم على عينها تحدد ثقافتهم ، وتصبغ عقلياتهم بألوان المدرسة التى يرشحون للتدريس فيها ولا تسمح لهم من الثقافة إلا بالقدر المعين المساوى تماما للبيئة التى سيعلم أبناءها ، وتحرمه بعد مما زاد حتى لو رغب فيه .

فللمعلم الأولى ثقافة تحددها وزارة المعارف بحيث لاتزيد حرفا عما يتلقاه تلاميذ المدارس الأولية . فهى ترى أن تلاميذ الأولى لن يعلموا اللغات الأجنبية مثلا ولن يحتاجوا إليها فلا داعى فى زعمها لأن يتعلمها المعلم الأولى وأن يحتاج إليها .

وهى ترى أن التعليم الأولى لن يدرس تاريخ مصر ولا أصول نهضتها القومية ، ولن يخرج منه مثقف مستقيم العقل واللسان ، ولن

يتعمق تلاميذه أصول الشريعة ولن يتفهموا أسرار دينهم . فلا حاجة بها إذن لأن يكون معلمهم على جانب من ذلك كله مشرف مقبول .

وإذا كانت وزارة المعارف تحكم بقسوة على هذا الجيش اللجب من المعلمين فتجردهم من كل ثقافة أصلية مرشدة وهادية فلماذا تبقى عليهم ؟ ولماذا تدعهم بهذه القشور الجافة من الثقافة لا تسمن ولا تغنى؟

إن الحرمان من الثقافة المطمئنة جريمة كبرى لا تطيق وزارة المعارف أن نلقيها عليها . وإن مدرس التعليم الأولى هو المعلم الأول من غير شك وهو على استعداد لأن يدرس ثقافة الجامعيين وأن يتذوقها إذا مكنتموه منها ، ولقد أثبت الكثيرون من بينهم أن المعلم الأولى يستطيع أن يتخطى السدود والقيود ويحمل من الألقاب العلمية أعظمها وأرقاها .

فلماذا تحدد الدولة لهؤلاء ولمن على شاكلتهم مقداراً من الثقافة لا تجود بغيره بحجة أن المستوى الذى سيعلمون أبناءه كثير عليه هذا القدر ؟ وما مصلحة الدولة فى أن يكون بين معلميها من ثقف ثقافه كاملة ، ومن له نصف الثقافة ومن له ربعها ومن ليس له فيها شيء ؟ أى دافع يدفعها لهذا ؟ .

ربما حاولت وزارة المعارف أن تدفع عن نفسها حين تزعم مثلا أن ليس هناك مايدعو لأن تزيد ثقافات مدرسى التعليم الأولى عن

بيئة تلاميذ التعليم الأولى وعقلياتهم . وليس هناك مايدعو أيضاً لأن تزيد ثقافات مدرسات الرياض على مايحتاجه تلاميذ الرياض ، وهكذا فى معلمى الابتدائى ومعلمى الثانوى .

ولكن وزارة المعارف إذا استطاعت خداع العامة بين أبناء هذا الشعب عن فظاعة جرمها فى هذا الشأن فلن تستطيع مطلقاً خداع المعلمين أنفسهم عن أنفسهم ، ولن تستطيع مثلا أن تخدع خريجات الأقسام الإضافية بأنها منحتهن من الثقافات ما كن يتمنين ولن تستطيع إقناعهن بأنهن فى تقديرها ونظرها على قدم المساواة مع أوائل المدرسين أو المؤهلات العليا من الجامعيين ! ! .

أقول : لن يقدر لوزارة المعارف أن تخدع المعلمين عن إساءتها إليهم ، ولن ينس المعلمون لوزارة المعارف أنها فرقتهم فى الثقافة أقزاما ، وعماليق ، ثم استدارت فسخرت من ضآلة الأقزام وغرور العماليق .

وبعد : فوزارة « دنلوب » متهمة أمامى بواحدة من اثنتين :

فإما أن تكون جاهلة ، وإما أن تكون خائنة .

فأما الأولى فلا أكاد أرتضيها ، ولا أتقبل أن تكون وزارة المعارف جاهلة . فقد تولى قيادتها كثيرون من السادة العلماء الذين شهدت لهم مصر بالسبق والتفوق فى ميادين العلم ، وشهد لهم الشرق العربى ، وشهدت لهم أوروبا .

وكثيرون من حضراتهم ذووا صيت على دولى عجيب ، وكثيرون من حضراتهم مثلوا مصر فى مؤتمرات علمية عالمية . فكانوا نجوماً مشرقات فى سماء الحضارة والرقى والتقدم العلمى الممتاز .

وكثيرون من حضراتهم ذووا ، فضل معروف على المكتبة العربية التى حفلت بآثارهم فى الأدب والعلم والسياسة والاقتصاد والاجتماع والشرائع والأديان والأخلاق .

وكثيرون من حضراتهم ملأوا الأندية العلمية ، وقاعات المحاضرات والدرس ثقافات عميقة موحية كان لها أبعد الأثر فى استنارة كثير من المثقفين .

وكثيرون من حضراتهم قد تلقوا ثقافاتهم فى أوروبا وأمريكا وزاروا الشرق العربى ، واتصلوا بالعالم أعمق اتصال وتعرفوا من غير شك إلى نظم التعليم فى الشرق وفى الغرب ، وأحسوا إحساساً مباشراً بما يصلح به أمر معارف مصر ومالا يصلح به أمرها ، وخبروا من طرائق التربية والتعليم ألواناً وأشكالا ربما عز على الكثيرين من المحدثين أن يصلوا إليها أو يساموها .

فهى إذن ليست وزارة الجهل ، وهى إذن قد خلصت من هذه التهمة وهى منها براء .

وإذا كانت وزارة المعارف تنفى الجهل عن نفسها ، وتستعيذ

بالله من هـذا الداء الخطير ، وتعلن على العالم أجمع أنها تعرف من شئون التعليم أكثر مما يعرف المصريون جميعاً ، وأن وزراءها العلماء قد طافوا بجميع دول العالم وعرفوا سياستها ونظم التعليم فيها وأن فى ديوان وزارتها عقولا ، وأدمغة سوف يتحدث التاريخ عن قوتها وقدرتها وجبروتها .

وإذا كانت وزارة المعارف تزعم أنها قد درست جميع نظم التربية فى العالم الحديث ، وأنها أحاطت علماً بأسرار فلسفاتها ! ! .

فلماذا لا تزال تعالج مشاكلها التعليمية بسياسة مضطربة خرقاء حتى الآن ؟ .

ولماذا لا يزال بعض سادتها ، وكبرائها يؤمنون بحصر العلم فى أضيق الحدود ؟ .

لماذا تحارب كل ذى رأى جديد ، أو دعوة قد يفيد من ورائها التعليم ؟ .

لماذا تغرس بيديها البلهاوين بذور الطائفية ، والخلاف ، وتبادل الخصومات بين المعلمين ؟ .

لماذا توزع الثقافة بمقادير على المعلمين فتترك المجال للطعن فى كفاءاتهم ؟ .

لماذ تصر على اختيار المفتشين من المعمرين الذين بليت ثقافاتهم وذابت أشخاصهم ؟ .

لماذا تعمل باسم السياسة على كبت جميع الحركات الإصلاحية التى يقوم بها المعلمون بين الحين والحين ؟ .

لماذا تقف من المعلم موقف العداء فتطعمه حيث لا تشتهى وتجلسه حيث لا يستريح ؟

ولماذا سمح وزراؤها بتراكم الظلامات فيها دون غيرها من الوزارات حتى أصبحت أجدر بأن تسمى وزارة المظالم ؟ .

ثم لماذا يجبن وزراؤها عن الصراخ فى وجه الدولة مطالبين بازدياد ميزانيتها ولو على حساب الجيش والبوليس ووزارة الصريحات ؟ .

هى مقصرة إذن ولم تنهض بواجباتها .

وهى بتقصيرها تمكن لسياسة « دنلوب » سياسة الاستعمار من إطباق مخالبها على أعناق المصريين جميعاً ، تعتصر دماءهم حين تعتصر قلوبهم وعقولهم .

هى إذن وزارة تخدم الغاصبين أكثر مما تخدم الشعب .

وإذا كانت تلك صفاتها فهى وزارة خائنة . يجب أن يعاد سادتها وكبراؤها فوراً إلى المدرسة الواعية الجديدة ليلقنوا فيها كباراً من مبادىء الوطنية ، والإيمان بالشعب ما حال « دنلوب » بينهم ، وبين أن يعلموه فى الصغر .

إننا لم نبرح أماكننا ، ولن نبرحها بعد ، مهنتنا هى التعليم ، والتوجيه والتربية .

وإننا مستعدون لأن نعلم الوزراء كما علمناهم من قبل أن هناك وطناً مظلوماً إسمه « مصر » .

وأنه باسم هذا الوطن يجب طرد جميع الوزراء الذين يغفلون العمل لاعلاء شأنه ، ولو لحظة ما .

أغلقوا المعاهد الإبتدائية

بدون قيد ولا شرط . وأغلقوا معها جميع مدارس المعلمين والمعلمات الأولية . أغلقوا جميع المدارس والمعاهد التى يخرج منها معلمون يحملون نصف شهادة أو شهادة متوسطة كما يسمونها .

إن الذين يتخرجون فى هذه المعاهد والذين تسميهم الدولة « أنصاف معلمين » صالحون من كل وجه لأن يسابقوا الدولة كلها فى نيل أكبر قدر ممكن من الثقافة والعلم ، وأن يكونوا ممتازين فيه ، وصالحون من كل وجه إذا مكنوا أن يبزوا كثيرين من غيرهم ، فأطلقوا هذه الكفايات من سجونها الضيقة الحقيرة قبل أن يحطموا جدرانها .

أطلقوهم فى ميادين المعرفة أحراراً وافتحوا أبواب الدرس

أمامهم وسوف تروى الإنتاج المريع الرائع من هؤلاء الذين لا يملئون أعينكم .

أغلقوا هذه المعاهد جميعاً لأنها بثقافاتها الحاضرة وأوضاعها الحاضرة ومستقبل خريجها مادياً وأدبياً ونظرة الدولة إليها من العلياء كل هذا يمس خريجيها مساً سخيفاً مؤلماً ويؤذيهم فى كراماتهم فاغلقوها لتكفوهم معرتها .

إن المعلم الأولى ياسادة المعارف يضيق بشهادته التى فرضتها عليه الدولة ثم عيرته بتقصها وضعف نفايتها .

إنه يضيق بها ويسبح فى أرحب الآفاق . يريد أن يظفر بعلم واق ومؤهلات أرقى .

إنه يطلب ويلح فى الطلب أن يدخل « كلية دار العلوم » ليحفظ كرامته العلمية بين ذوى الثقافات فلماذا تقفون دونه ؟ .

أما زملاؤنا من خريجى معاهد المعلمين الإبتدائية فأعتقد بقوة ويقين أنهم جميعاً « يسخطون » أشد السخط ، وينفورون أشد النفور من هـــذا اليوم المشئوم الذى ساقهم القدر فيه إلى هذه المعاهد فدخلوها مخدوعين بها .

إنى أهيب بهم أن يسخطوا ويضيقوا إن لم يكونوا ساخطين ولا ضائقين ، وأهيب بهم أن يتبرموا بوضعهم إن لم يكونوا متبرمين به .

فإن من المهانة والزراية بهم أن يقفوا بباب الدولة يقدمون انفسهم ويعرضون شهاداتهم ، ويطلبون ثمنها ، فلا تلتفت إليهم الدولة إلا كما يلتفت التاجر الدنىء الجشع إلى بائع ذى حاجة جاءه فى سوقه ليقول اشتر منى ، فيساومه اللص بما يقصم ظهره فإذا استنصفه البائع المسكين ثار اللعين وزمجر ، وقال : أتريد منى ان آخذ بضاعتك المنحطة بسعر النظيف العالى ؟ .

إن من المهانة أن تساومهم الوزارة على ثمن شهادتهم بقسوة وزراية ، فإذا استنصفوا لأنفسهم وطلبوا السادسة بدل السابعة ثارت الوزارة وقالت ماذا نمنح ذوى المؤهلات العليا إذا منحناكم السادسة ؟ .

إنى أطالب الدولة بإغلاق هذه المعاهد إذا كان فى بقائها إذلال خريجها .

إنهم جميعاً يتململون فى مضاجهم ، ويضجون بالألم والأسف الشديد وخصوصاً من دخلوا المعهد من بينهم حاصلين على « التوجيهية » . ففرق عام واحد أنزلهم من السماء وعلقهم فى مهب الريح . إنهم يعتبرونها مأساة بالنسبة إليهم ، وليس منهم من أتيحت له فرصة الخلاص من هذا الوضع المهين بالدراسات أو غيرها إلا سعى إليها .

وغير هؤلاء كثيرون وكثيرون ممن تمسخهم الوزارة وتشوههم

بيدها ، ثم تنفر أمام الدولة من هذه الخلق المسيخة المشوهة .

إننا نريد أن يخرج جميع المعلمين من معهد واحد .

نريد أن يحملون شهادة واحدة ولقباً واحداً .

نريد أن تنطبق كلمة معلم بجميع حروفها على كل من يمسك « الطباشير » ويصحح الكراسات .

نريد أن نعين الوزارة على التخلص من أزمة تسعير الشهادت والمساومة عليها .

نريد أن يكون جميع معلمى الدولة متساوين أمامها فى درجاتهم العلمية ، وفى قيمهم المادية ، وفى مستقبلهم العام والخاص. لا يفرق بينهم إلا نوع العمل الذى يرغبون فى مزاولته .

ولهذا يجب أن تكون جميع المعاهد التى تخرج المدرسين معاهد عليا .

وأن يلغى من الوجود كل معهد « واطى » يشعر خريجوه أو تشعرهم الدولة أنهم دون غيرهم .

تعليم الدين

وإذا كانت وزارة المعارف طوال حياتها الماضية قد نجحت فى أن تخرج للدولة متعلمين كثيرين . ومثقفين قليلين ومستنيرين أقل !!

فهى لم تنجح مطلقاً فى أن تخرج للدولة رجلا واحداً تهيئه طبيعة التعليم فى وزارة المعارف للاعتماد عليه .

إن جميع الذين علمتهم وزارة المعارف واستأثرت بتعليمهم ، ولم تشاركها فى صقلهم وتدعيم طبائعهم مؤثرات أخرى : هم بدون استثناء مجموعة رخيصة من الشباب المائع الرخيص الذى لا يصلح لشىء .

والذنب فى الواقع ليس من صنعهم ، وإنما هى جناية الطرطشة الفكرية والثقافية التى تتسم بها برامج وزارة المعارف .

هذه البرامج التى يطالعها التلميذ منذ السنة الأولى حتى ينتهى فلا يكاد يظفر من مطالعتها بمثل أعلى واحد ينير جوانب نفسه ، ويحدث فى فراغها نوعا من التركيز .

فلا هى تثير فى التلميذ قومية ، ولا مصرية ، ولا تثير فيه مسيحية ولا إسلاماً ، ولا تخلق فيه من يحب لغة بلاده ولا من يبغضها .

وإنما هى كما قلت طرطشة مهلكة تهدهد إيمان التلميذ ، وتعصف باستقرار نفسه :

والغريب أن وزارة المعارف تظهر إهتمامها الشديد الزائد بحل مشكلة « وقت الفراغ » عند التلميذ فى نفس الوقت الذى تعمل فيه هى وبرامجها على تفريغ نفسه وعقله ومشاعره طوال العام .

ولا أريد الآن أن أتحدث عن برامج وزارة المعارف فسوف أتناولها بعد ، وإنما أقصد إلى الحديث عن تعليم الدين بمدارس المعارف المصرية التى يدين تلاميذها بالمسيحية والإسلام .

مما ليس فيه شك أن تلاميذ وزارة المعارف ـ أعنى تلاميذ المرحلتين الأولى والثانية ـ أشد تلاميذ الدولة حاجة إلى تعمق دراسة الدين وتذوق أسرار روحانيته لتركيز نفوسهم وضمان القرار لها .

فالتلميذ فى هذة السن وخاصة عند المراهقة تتطلع نفسه إلى آفاق رحاب من النظر والتفكير تسيطر عليها العاطفة ويستبد بأصلها الوجدان .

وهو فى لحظاته تلك أكثر الناس قلقاً وضيقاً وتساؤلا وأكثر الناس رغبة وشوقا إلى فهم دقائق العالم المجهول وسبر أغواره .

وهو أكثر الناس إعجاباً بالمثل العليا وألوان البطولة وبكل ما يهز شعوره ويملأ عليه جنبات نفسه الفارغة الظمآى .

وهو فى هذه السن أيضاً أكثر التلاميذ تسليما بما يلقى إليه . وأكثرهم إيماناً به وتعصباً له وتفانياً فى سبيله .

وهو أكثر الناس شوقاً إلى إشباع عاطفته بأى طريق ما .

فإن أنت ملأت هذه النفس ديناً وإيمانا فقد ملكت قيادصاحبها واستوثقت من طاعته وضمنت استجاباته ، وتكون إذن قد ألقيت على هذه النفس الحائرة هدوء المعرفة المقدسة واطمئنانها الحافز ، وتكون أيضاً قد هدهدت عواطفه الفجة على نداء البطولات والمثل العليا ، والحياة النظيفة والأخلاق والدين ، وبهذا تبتعد عنه أفكار السوء ، ويصبح قرار نفسه نظيفاً سليما لا يؤذى وإنما يدفع إلى الأمام خطوات .

أما إذا لم تستغل هذه الحيرة لتطفىء شوقها بالدين ، ولم تحفتل بخلجات هذه النفس ، وتركت هذا التلميذ يطفىء رغائبه من أى ورد يصادفه فقد أسأت إليه بمالا يمكن التجاوز عنه ، لأنه لن يتعقل ، ولن يختار ، ولن تكون لديه للقدرة على المقارنة والتفضيل ، وسوف يهوى من غير شك إلى زمهرير الشهوة القاتلة ليثلج به سعار عواطفه المشبوبة الحرى .

سوف يسقط ، ولن يجدى فى إنهاضه من سقطته أن تسقيه ذوب القرآن ولا مزامير داود .

وإذا كان من الميسور أن يستعيد الإنسان أى شىء ضاع فإن من المستحيل أن تستعيد الروح الشارد أو الأيمان المفقود .

إن قلب الشباب لابد أن يمتلىء . فإذا لم نعمره بالدين والبطولات

فسوف تغتاله غضباً جميع العناصر البشعة مما يصوغه إبليس .

إذن فوزارة المعارف مسئولة أمام الدولة عن هذه الحيرة المهلكة التى يقاسيها شباب هذا الجيل والتى تضيق الأمة بمتاعبها وويلاتها .

هى مسئولة عن زعزعة الثقة فى نفوس شبابها وإشاعة البلبلة والقلق فى أفكارهم .

إن المدارس الدينية فى مصر - وليس منها الأزهر - قد نجحت أروع النجاح فى خلق الجبابرة الأشداء ، وتقديمهم كمواطنين إلى الدولة فى أصلح صورة يكون عليها المواطنون .

فقد خلقت منهم جميعاً أصحاب رسالات ، ومبادىء ومثل ، يجودون بالنفس إن ضن الجواد بها، ويحسنون القيادة إذا أسلمت إليهم ، ويضربون المثل الرائعات فى الفداء والتضحية .

وأعنى بهاتين المدرستين . الأخوان المسلمين ، وجمعية الشبان المسيحية .

فأما الإخوان فالدولة كلها تعلم كيف كانوا يخلقون من العامل البسيط الساذج فى مدى أسابيع داعية وقائداً وصاحب رسالة . وكيف كان شبابهم فى فلسطين أصلب فى الجندية عوداً وأقوى فى الدفاع مراسا ، وأكثر عند الخطر تفدية وتضحية .

وإذا كانت الدولة لا تعلم ، أو تريد ألا تعلم ، فقد علم الإنجليز

مدى خطر التربية الدينية على وجودهم حين أوحوا إلى عصبة مجرمة من خونة المصريين فأنزلوا بهم المحن .

وأقسم أن لو سلكت وزارة المعارف طريقة الإخوان فى تربية أبنائها مارأيت على ظهر مصر رقيعا ، ولا غرا ولاشبه رجل . بل مارأيت على ظهرها جاهلا ولا شريدا ، ولا محروماً من الثقافة .

وأما جمعية الشبان المسيحية فيكفى لتقديرها وضرب المثل بها أن تعلم أن أصغر ولد من أولادها يستطيع فى سهولة ويسر أن يقود حياته فى أى بقعة من بقاع الأرض التى خلقها الله دون عون ولا سند . ويستطيع كما يقولون أن يفجر الينا بيع فى الصخر الأصم تدفعه إلى شق الطريق تربية طيبة صالحة بنيت على أساس من الصحة والدين والأخلاق .

وإذا كانت وزارة المعارف لا يهمها أن تدرس الدين فى مدارسها لأنه لايهمها أن تقدم للدولة رجولة ورجالا ، فإنى أتوجه إليها باسم معالى وزير الداخلية أن تربى تلاميذها تربية دينية قوية لتخلق فيهم الروح العاصم الذى يساعد مدير الأمن العام على مقاومة الأجرام .

ولن أتحدث إليها الآن عن القرآن كدستور للدين وللدولة ، ولا عن الإنجيل كدعاء للسلام والمحبة ، ولكنى سوف أنقل إليها ماقرره أصحاب النظرية الإيطالية فى تأثير العوامل الاجتماعية

والاقتصادية على الاجرام حين أكد أحدهم « جاروفالو » أهمية التربية الدينية فى تهذيب روح الأفراد ورفع مستوى إحساسهم الخلقى فقال : « إنه لمقاومة الاجرام ، يجب رفع مستوى الإحساس الخلقى (Sens Moral.) بالتعليم الصحيح القائم على أساس دينى لأن أسباب الجريمة وموطنها الأساسى هو ضعف التكوين الأخلاقى لا العوامل الاقتصادية أو الأحوال الاجتماعية .

الأزهر

وهذا الأزهر الشريف يجب التفكير الجدى السريع فى إلغائه لأنه بوضـــعه الموجود خطر على الدولة وداء متوطن يجب القضاء عليه .

وأحب قبل أن أمضى فى الحديث أن أقرر أنى من أشد الناس إيماناً بحق الأزهر علمائه وطلابه فى الحياة الكريمة كأى من المواطنين الذين ننشد لهم حياة فى أرقى المستويات الاقتصادية والاجتماعية . وإنى أجيد التفريق بين أشخاصهم كمواطنين ، وبينهم كأصحاب رسالة لم يقدر لها أن تفيد فى هذا الوضع .

كما أحب أن أضع بين يدى القارىء حقيقة مؤلمة هى أنى قد سلخت من حياتى تسع سنوات فى هـذا الأزهر قبـل أن أدخل دار العلوم .

ومبعث الألم من هذه الحقيقة أن أبسط قواعد الوفاء للمعهد الذى علمنى وأوصانى إلى حيث أنا الآن توجب على أن أكون أول الدافعين عنه ، والحافظين لحدوده ، ولكن : ما حيلتى ؟ ! ! وكل يوم يزداد إيمانى بأن هذا الأزهر هو أحد حجرى العثرة فى سبيل نهضة الشعب واسترداد حريته وثورته على الفساد .

ولو سألتنى رأيى عن سبب تأخر المصريين لأجبتك دون تردد. أن سبب تأخر مصر . الأزهر والانجليز .

ومبعث إيمانى بهذا الرأى وأنا أعالج الأمر بروح العلم ، أن فى الأزهر حمى رسالة خالدة لو صدع الأزهريون بها وعلموها الشعب لاستحالت مياه القنال جحيما يروّع الغاصبين . لكنهم هانوا فضاعوا وأضاعوا .

وموطن الخطر أن طلاب الأزهر جميعاً من الأرياف . . . حيث تنتشر الظلمة البشعة المريعة يتردى فيها أهلونا ، وحيث الجهل المطبق الشديد الغمة يعمى العيون ويحطم القوى ، وحيث الفقر اليائس يكفر بالله ويشيع الهوان والذل .

فلو قدر بى الأزهر طلابه التربية الدينية الحقة ، ولقنهم ثورة « محمد صلوات الله عليه » على إحناء الرءوس لغير الخالق الأعظم ، وثورة عمر على أن نعطى الدنية فى ديننا . ثم ثورة أبى ذر الغفارى على « الرجل لا يجد قوت يومه ثم لا يخرج على الناس شاهرا سيفه » .

لو ربى الأزهر طلابه هذه التربية لكان إيمان الفرد كافياً لأن ينقل إقليما بأكمله من الظلام إلى النور ولكانوا من غير شك حماة للشعب من الجهل القاتل والفقر المكفر . لكنه لم يفعل ، وفى هذا خطر .

والأزهر أيضاً كأكبر جامعة إسلامية عتيقة يهز بصورة تقليدية

مشاعر الشرق العربى فى جوانبه الإسلامية كلها حيث تفد إليه البعوث من أبنائها يطلبون فى رحابه رسالة الله إلى الحيارى الضائعين من عباده .

وكان ممكنا أن يتناول الأزهر مقاليد الثقافة الدينية الخالقة فى هذه الدول ليوجه أرواح شعوبها إلى النهضة الكبرى ، ولكنه لم يفعل ، وفى هذا خطر .

والأزهر كان يستطيع أن يهز أعطاف مصر من أقصاها إلى أقصاها بالتربية الروحية البناءة ، وأن يقدم لمصر وللشرق كثيرين من أمثال جمال الدين الأفغانى ، ومارتن لوثر ، ومحمد عبده ، وحسن البنا ، وآية الله كاشان وغيرهم من محررى العبيد الذين لم يكن لهم نشاط إلا أن يعمروا الأرواح بالإيمان ، ولم تكن لهم أسلحة إلا أن يقودوا ويرشدوا ويوجهوا بما أنزل الله مما فيه خير الناس ، ولكنه الآن مملق وعقيم ، وفى هذا خطر .

وإذا كنت أمقت جميع الذين يصرفون الشعب عن غايته ، ويبطئون به عن النهاية السعيدة ، ويكونون عوناً للمفسدين عليه ، فإنى أمقت الأزهر من كل قلبى ، وأشرع معولى مهما كان ضعيفاً لأحطم به فى جداره فإن الأزهر فيما أومن به قد أصبح رمزاً لهؤلاء جميعاً .

إن التعليم فى الأزهر بوضعه الموجود الآن خطر يهدد

نهضة الشعب فيجب إلغاؤه فورا ، ويجب القضاء عليه ، لأنه يمزق الوحدة الثقافية بين المثقفين ، حين يقتطع هذا الجهور الضخم من أعز أبناء الشعب فيفنى شبابهم ، ويقتل حيوياتهم فى تعمق خرافات ليس فيها غناء .

فالواقع أن طلاب الأزهر فى شبه عزلة عن المجتمع الذى يعيشون فيه، عزلة لايريدها أحد منهم ، وإنما تريدها هذه «الأنتيكة» الثقافية التى يوهمون بأنهم الأمينون عليها .

ولست أنسى المعركة القريبة التى قامت على صفحات « الرسالة » حول برامج الأزهر ومؤلفاته وكتبه ذات الطابع الأثرى التى مايزال يدرسها الطلاب فى مصر ، وفى القرن العشرين .

لست أنسى فى هذه المعركة أن أقوى أصحابها حجة وأعنفهم ثورة وأشملهم بياناً كانوا أزهريين بل كانوا طلاباً على الدقة .

ولست أنسى أيضاً حين كنت طالباً بالأزهر أننا قمنا بثورة عنيفة على نوع الثقافة التى كنا نلقاها ، وطالبنا بإيمان وإصرار تسوية الأزهريين بغيرهم من متعلمى الدولة فيما يدرسون من ثقافات وفيما يستمتعون به من ميزات وحقوق .

ولست أنسى كذلك أن الأزهريين قد طالبوا منذ سنوات بدخول الكلية الحربية ، وكلية الحقوق . ليكونوا من شبابها ولتزهو نفوسهم لحظة بأنهم يقدمون فى سبيل وطنهم شيئا .

فلما حدثتهم الدولة أن الثقافة المدنية ضرورة لازمة للطالب فى هاتين الكليتين ثاروا متذمرين على ثقافتهم العفنة التى لا تؤهل صاحبها لشىء إلا أن يكون من المشايخ ، وما ذلك بشىء .

ولقد كان بعض الطلاب يتطرفون فى الأحلام ويطلبون إلى أشياخهم أن يسعوا لدى الدولة لتمنحهم حق دخول كلية الطب ليستعيدوا تاريخ طلاب الأزهر فى بعثات « محمد على » ، وكان الجواب بالطبع مهيناً قاسياً على الكرامة الثقافية فى نفس كل طالب حين يسمع أن هناك شيئاً غير ثقافة الأزهر يسمى الثقافة المدنية لا تعترف الدولة إلا به ، ولا تفتح أبواب جامعاتها إلا له .

ومن العجب أنه حين أتيحت الفرصة لبعض طلاب الأزهر أن يجربوا ما يؤديه المثقفون من بقية أبناء الدولة فى ميادين التدريب العسكرى الجامعى مثلا لم يكونوا أقل كفاءة، ولا تميزا ، ولا استعداد للقيادة من أى مثقف آخر .

والذى يعنينى من كل ذلك أن أقرر للسادة الأفاضل من كبار المشايخ : أن طالب الأزهر يعيش الآن فى القرن العشرين وأنه لا يستطيع العيش فى جب ، وأنه مكره على أن يتصل بالناس ليعيش كما يعيشون ، ويفكر كما يفكرون ، ومن حقه أن يطمع فيما يطمع جميع المثقفين فيه .

فإذا خطر له أن يكون طبيباً ، أو مهندساً ، أو صاحب

مصنع وصدمته الدولة بأن ثقافته التى أفنى عمره فيها ، وحبس نفسه على تحصيلها لا تؤهله من ذلك كله شيء لأنها غير صالحة لشيء .

إذا ردته الدولة هـذا الرد المهين . فانه من غير شك سوف يلعن أهله الذين اختاروا له من أماكن الدرس مكاناً محقراً لا تعترف الدولة بما يدور فيـه ، وسوف يلعن أشياخه الذين غرروا به وخدعوه عن نفسه وعن الواقع المر ، وسوف يلعن الدولة كلها بنظامها الفاسـد الذى يسمح ببقاء هـذه « الأنتيكات » يشقى بها الشباب .

ومعنى هذا أن بقاء الأزهر بمعزل عن الثقافة المدنية سوف يعقد نفسيات الطلاب ، ويملؤها بالسخط والأزمات والثورة على أنفسهم ، وأهلهم وأشياخهم والدولة ، وهذا خطر كبير يتهدد مصر من جمهور من الشباب كبير .

وقد يحدث كرد فعل لما يعانيه الإنسان من شعور بالنقص أن يصاب بالغرور البغيض الأجوف الذى يسلب المصاب به روح العلم ، وهى روح الأخلاق واطمئنان النفس فيثبت فى مكانه دعيا صفيقاً ينهار ، ويدفع الآخرين بكلتا يديه للهاوية .

والمصابون بالغرور فى الأزهر ليسوا هم الطلاب .

فالطلاب فى الواقع ساخطون على حظوظهم ، أعظم السخط ضائقون بحيواتهم أعظم الضيق ، يعرفون وضعهم فى المجتمع

ويعترفون به ، يعترفون به بصراحة تهزك إعجاباً بهم ، وتقديراً لهم حين تستمع إلى الطالب منهم يحدثك عن ذات نفسه وعن إحساسه القلق وأنينه المكبوت فيقول لك :

إننا ياسيدى لسنا من أحياء هذه الأمة ، إننا نفرض أنفسنا فرضاً على الدولة .

إن ثقافتنا لا تملأ نفسى ، لهذا قررت أن أدرس ، لقد اتصلت بالمعهد البريطانى وأصبحت طالباً فيه ، أريد أن أبدل مكانى ، وأمد آفاقى وأحمل السلاح الذى يتقاتل به الناس .

إن طلاب الأزهر ليسوا مغرورين ، ولكنهم فى الواقع ذخيرة جبارة يمكن لمصر أن تعتمد عليها إذا استغلت استغلالا طيبا ، إنهم جميعاً يحاولون أن يوجهوا مستقبلهم توجيهاً خاصاً بهم كأفراد بعد أن افتقدوا من يوجهونهم كمجموع .

وإن هؤلاء الطلاب قد غمر كثيرين منهم الوعى الجديد ، وأصبح من العسير الشاق أن يخدعوا .

ومهما يحاول السادة الأفاضل أن يمنحوا شيخ الكلية لقب « عميد » ويخلعوا على المدرسين كلمات « أستاذ ، وأستاذ مساعد » ومدرس حرف « ا » وما شاكل ذلك ، ومهما يحاولوا تسمية « كلية الشريعة » باسم « كلية الحقوق الإسلامية » فلن يستطيعوا مطلقاً خداع الطلاب عن الواقع .

إن طالب كلية الشريعة مثلا يعرف جيداً أن الدولة لا تسمح له أن يكون ممثل الاتهام فى قضية رجل يسب الدين فى الوقت الذى تسمح فيه لحامل « ليسانس الحقوق » أن يترافع أمام المحكمة الشرعية بجميع أنواعها ، فما معنى هذا ؟؟ .

إنه اعتراف صريح من الدولة بنقص الثقافة الأزهرية ، وهو يقصم ظهر الطالب المسكين الذى سلخ من عمره المكدود خمسة عشر عاماً أو تزيد يعيش أبأس عيش ويشارك فى الدرس الفارغ بأقصى جهد .

ثم إن الأزهر بطبيعته مهدد بالإلغاء . والانقراض لأسباب منها .

أولا : أن طلاب الأزهر جميعاً يريدون أن يستمتعوا بكل الحقوق التى يخولها الدستور للمواطنين ، وهم يعرفون أن بقاءهم فى الأزهر يحرمهم الكثير من هذه الحقوق ، ويحول بينهم وبينها فهم جميعاً يحاولون جاهدين أن يغيروا مجرى حيواتهم كل على طريقته الخاصة .

ولست آمن بعد أن يجىء اليوم الذى تحاول فيه إدارة الأزهر أن تستبق الطلاب فى معاهدهم فلا يرضون ويخرجون منها واحداً واحداً ليتركوا عماراته الشماء شامخة يستمتع بجمالها السادة الأفاضل .

ثانياً : بعد تقرير مجانية التعليم انصرفت الكثرة الغالبة من

أبناء الشعب إلى موارد الثقافة المدنية الحية ذات المستقبل المضمون ، وليجرى عليهم على أسوأ الفروض ما يجرى على غيرهم .

فلن يفكر فى الأزهر أحد إلا المخلفون ممن فاتهم الركب لكبر سنهم مثلا ، أو من انعدمت لياقتهم الطبية فكانوا غير صالحين .

ثالثاً : إن الثقة الروحية برجال الدين الذين يمثلهم الأزهريون قد زلزلت زلزالا شديداً .

فمن المعروف أن لرجال الدين فى العالم تاريخاً أسود لجناتهم على حريات الشعوب ونهضتها واستقلالها .

أما فى مصر فرجال الدين لهم وظيفة يعرفها المصريون جميعاً وهى الافتاء . . . الافتاء بحسب الطلب . . . وأيا كان الطالب ! ! .

فهم مثلا يدافعون عن « البيبسى كولا » لأن العلم الشريف ... قد أثبت بتحاليله . . . الكيماوية . . . الشرعية أن هذا المشروب من المشروبات الشريفة الخالية من ميكروب الاحتلال الاقتصادى الذى حرمه الله .

فإذا كان الأزهر كما قلت مهدداً بمثل هذه العوامل ، فمن الخير أن تسرع الدولة إلى التفكير فى إلغائه إبقاء على كرامته كأعرق جامعة دينية يتطلع إليها المسلمون فى جميع أقطار الأرض بالأكبار والمهابة .

والعلاج ؟ ؟

أولا : يجب فصل منصب شيخ الأزهر عن جميع الأعمال التى تتصل بالأزهر كمدرسة من قرب أومن بعد ، واعتباره مركزاً روحياً عاليا ينظم علاقات المسلمين على وجه الأرض بمصادر تشريعهم وعقائدهم .

والذى أقصد إليه من وراء هذا الفصل أن نسمو بقداسة المركز الكريم عن أن تكون رعايته ، وإشرافه وقفاً على الأزهريين دون غيرهم من المسلمين فى بقاع الأرض .

ثم إن طلاب الأزهر بالوضع الموجود يعتبرون شيخ الأزهر ملكالهم ، ويرون من حقهم أن يشاركوا فى تقرير مصيرهم باختيار الرجل الذى سوف يرأسهم .

وهنا تتدخل السياسة بين الصفوف بفتنتها البغيضة ، فلا تكاد تنتهى للأزهريين خصومة ، أو تفرغ لهم ثورة ، وهذا مواطن خطر على وحدة الطلاب كمواطنين أولا ، ثم كأبناء معهد واحد ثانياً ثم على أعمارهم العلمية التى تضيع فى الاضراب والفوضى من جهة ثالثة .

ثانياً : يجب إلغاء القسمين الإبتدائى والثانوى فى الأزهر

فوراً ومنذ اليوم . حتى لا يكون فى الدولة ما يسمى « ابتدائية الأزهر أو ثانوية الأزهر » .

والطريق إلى هـــذا الإلغاء هو تسليمهما فوراً إلى وزارة المعارف لتعلم طلابهما مما يتعلمه بها بقية أبناء الشعب . حتى لا يشعر الأزهرى بالغربة الثقافية وهو فى وطنه وبين أهله، وحتى يستطيع التجاوب مع الآخرين فيما يشعرون به ، وما يفكرون فيه ، وحتى يستطيع المشاركة الفعلية فى الحياة المصرية بدل أن يعيش مجهولا فى زوايا النسيان يقرأ مجموعة المتون ، وحتى يستطيع إذا ثقف الثقافة المدنية التى تعترف بها الدولة أن يكون حراً بعد حصوله على « التوجيهية » أن يختار مثلا بين كلية الشريعة، أوكلية الحقوق .

فى هذا اليوم لن يوجد من يقف فى طريق آماله ليقول ... لا .

وأحب قبـل أن أختتم هـذا الفصل أن أتوجه إلى السادة الأفاضل علماء الدين بهذا السؤال بصفته استفتاء :

هل حضراتهم مؤمنون بأن السياسـة التعليمية التى يسير عليها الأزهر الآن فى صالح الدين ، وصالح المسلمين ؟؟ .

إذا كان الجواب . . . لا .

فلماذا يسكتون عليها وهل السكوت حلال ؟؟ .

وإذا كان الجواب . . . نعم .

فلماذا لم يرغموا الدولة كلها على الأخذ بها إعلاء للدين، ورعاية لصالح المسلمين ؟؟ .

وهل تقصيرهم هذا حرام ؟؟ .

أريد باسم الدين . والوطن . أن أطمئن .

قواد الحركات

وقد يسألنى القارىء ، وما دخل زعماء المعلمين فى سياسة التعليم ؟ وما خطرهم عليها ؟ .

وهم إذا أحسنوا كانوا كغيرهم من الخيرين يصلحون فى السياسة ولا يفسدون، وإذا أفسدوا لم يكونوا شراً من المفسدين الذين غمروا البلاد بفسادهم . فما خطر قيادة الحركات إذن على سياسة التعليم ؟؟ .

ولكن على القارىء الصديق أن يتصور معى حركة من حركات المعلمين عنيفة شديدة عارمة ، قام بها المعلمون يوماً يطلبون إلى وزير المعارف أن يرفع ظلامة المظلوم ، يحقق المساواة بين الطوائف ، ويصلح أخطاء سياسة التعليم .

ليتصور القارىء هذه الحركة العنيفة المجمعة ، وقد التقى زعماؤها فى إحدى الأمسيات بالوزير نفسه ، أو رسوله ، وتفاهما بلغة السياسة ، واجتياز المأزق الحرج ، على أن تموت الحركة وينتهى الموقف عند هذا الحد .

وليس يعنينى هنا أن يقدر الوزير نفسه أو رسوله للزعيم ثمناً لاتفاقه ، أو لا يقدر له ، وليس يعنينى أن قد ساوم الزعيم أو لم يساوم . ليس يعنينى هذا فسوف أترك القارىء الصديق يتخيله ، أو يتكهن به .

وإنما الذى يعنينى . أن أتصور الزعيم من هؤلاء بعد اتفاقه مع الوزير نفسه ، أو رسوله يجيء إلى الثائرين الساخطين من أبرياء الزمـــلاء فيصب على غليانهم ثلجاً مذاباً فى خسة وخداع تفتر بهما نفوس الثائرين ، وربما هزموا .

ليتصور القارىء الصديق معى هـذه الجناية البشعة على حركة قامت لتدفع ظلماً ،وتحقق عدالة ، وتصلح أخطاء فما ظفرت بشىء !.

كم ييأس الساخطون ؟ ! وكم يضيقون بأنفسهم ويضيقون بالناس ؟ ! وكم يفقدون الثقة ؟ ! وكم يستأسد الظالمون ايزرعوا فى ظهور المخذولين أشواك الهون والمذلة ؟ ! وكم يتأخر الإصلاح ، ويحطم الرجاء فى الخير ؟ ! .

ثم كم يكسب الزعيم لقاء خيانته ؟ ! وكم يساوى ما يكسب القائد إذا خسر جنوده كل شىء وخسر من ورائهم شرفه ؟ ! ! .

الحق أنها مأساة يجب البحث عن جناتها ، وتقديمهم للمحاكمة جزاء ما أجرموا فى حق مظلومين تراكمت الظلامات فوق هاماتهم حتى خفضوها ذليلة ، وجزاء ما طوعوا لآكلى حقوق الناس أن يستمرئوا جسد المعلم المسكين ،ويستطيبوا مذاقه،وجزاء ما أتاحوا للسياسة الفاسدة أن تستوثق من الأرض بجذورها ، وأن يصعب اقتلاعها على طالبى الإصلاح .

ويجب تقديمهم للمحاكمة على ماضربوا للناشئين من مثل سوء يشع قذارة وخزيا ما تحدث الناس عنه .

إنى أطلب إلى وزير المعارف باسمنا جميعاً محاكمة « مجرمى الحركات » وليكن ذلك بدء عهد جديد من تربية الرجال يقول فيه الوزير المسئول لمن يزلزلون بثوراتهم عرشه مطالبين بحقوقهم .

لماذا فشلت ثورتكم ؟ .

ولماذا تراجعتم ؟ .

ومن هو الخائن ؟ .

حتى يكون ذلك درساً يحفظ للنفوس الحرة النظيفة قدسيتها فى زمن لا « يصل » فيه إلا الخونة الفارغون المجرمون .

وقد يطيب للقارىء الصديق أن يسألنى مرة أخرى لا عن الزعماء ولكن عن المعلمين أنفسهم .

وكيف سمحوا لهذه الخفافيش أن تعمل فى الظلام وراء ظهورهم وأن يستغلوهم ؟ .

ولماذا لم يسقطوهم ؟ .

ولماذا لم يثوروا عليهم ؟ .

وكيف طال الزمن بهذه الغفلة ؟ .

وهذا فى الواقع ما أريد أن أعرض له .

وأحب مبدئياً أن أقرر أن جميع الوزراء وأشباه الوزراء الذين سهلوا مهمة « مجرمى الحركات » أو يسهلونها ، والذين كانوا

عوناً لهؤلاء المجرمين بأى وسيلة من الوسائل على تضييع جهد كل حركة فى سبيل الإصلاح ، والذين آووا هؤلاء المجرمين ، وأغروهم ، وفتحوا لهم مكاتبهم ، أو تلقوهم فى منازلهم ، والذين قبلوا معونة هؤلاء المجرمين ، باسم السياسة وبلغة « إنقاذ الموقف ».

هؤلاء يجب اعتبارهم شركاء حقيقيين فى الجريمة يحملون من أوزارها نصيبهم الثقيل ، ويجب اعتبارهم كذلك من أكابر المجرمين.

وقد يعجب القارىء الصديق لماذا لم أشد عليهم ؟ ولماذا لم ألق على كواهلهم بالوزر كله بوصفهم من أهم أركانه ؟ .

هل أنا راع جانبهم .؟

هل أنا خائف منهم ؟ .

كلا فليس للخائن سطوة تهاب ولا جانب يرعى ، ولو كان وزيراً ، ولو كان شبه وزير .

وإنما الواقع أنى أصب جام غضبى على الزعماء والقواد خاصة لأن القائد النظيف الذى يسنده جمهور مصمم أعنف قوة ، وأصعب منالا على كيد كل وزير ولو كان الوزير إبليس .

فعلى القادة وحدهم تقع تبعة الفشل ، وإذا فشلت الحركة فالقائد وحده المسئول .

فمن هؤلاء القادة ؟ ومن هم اللاعبون بمصائر المعلمين ؟ .

لن أذكر اسماً واحداً من أسمائهم . فربما كنت أنت أكثر منى معرفة بهم ، وربما عاصرتهم أوشاركت فى حركاتهم ، أو كنت من ضحاياهم .

ولكنى سوف أرسم لأخلاقهم صورة عامة . سوف أضع مثالا ونموذجا لصفات الزعيم الخائن .

فإن برزت فيها ملامح من تعرف منهم فاحذرهم فانهم آفة ، ووباء .

وإن لم تبرز فيها ملامح من تعرفهم فابحث عن الخائنين .

أخص ما يتصف به مجرموا الحركات هو الكذب ، الكذب الذى لا يقف عند حد .

والكذب فى ذاته نقيصة لاتقرها مقاييس الأخلاق والفضائل فإذا أضيف إليه أن يكون بقصد الأيهام والتضليل ، وتشويه الوقائع والحقائق ، بدأ اعتباره جريمة يسأل مرتكبها أمام القانون .

فإذا أضيف إليه مرة أخرى أن الجريمة فيه لاتقع جنايتها على الفرد ، وإنما تصيب بالشر مصائر الآلاف من الناس كان جريمة بشعة يجب مطاردة جانيها ونفيه من المجتمع لأنه إذن يكون ممن يحاربون الله ورسوله ويسعون بالفساد فى الأرض .

وللكذب عند « مجرمى الحركات » أسلوب غريب عجيب « يتقنون فنه إتقاناً ، ويحبكون أصوله حبكا شديداً حتى لتكاد تخدع بما

يقولون ، وغالباً ما تخدع وقد خدع كثيرون غيرك من قبل ، وسوف يخدع كثيرون غيرك من بعد فلا تبتئس فهم دجالون مهرة ، وليس من اليسير أن تكشف مستورهم . فهم لا يلقون إليك ما يريدون إلقاء ، ولا يتحدثون إليك بما يعرفون فى سهولة ويسر كما يتحدث الناس .

وإنما يلفون ويدورون ، ويحاورون ، ويناورون ، ويأتونك من بعيد ، ومن بعيد جداً . حتى لتكاد تختلط أمامك المعالم والصور ويصعب عليك التمييز بين الباطل والحق .

وهنا فى هذه الغمرة « يصطادك » الزعيم ، ويميل عليك ، ويهمس فى مسامعك بصوت خافت جداً .. قيل .. لأن موضوع الحديث خطير لا ينبغى أن يعرفه كل شخص ، ولكنك أنت .. أنت أيها الضحية الجديد . . قد أصبحت موضع الثقه ، ولهذا قد اصطفاك « الزعيم » واختارك إلى جواره ليسر بذات نفسه إليك .

إنهم دجالون مهرة ، فاحذرهم .

إحذروهم حين تلقونهم ، واحذروهم حين يتحدثون إليكم ، وحين يتصلون بكم ، إحذوهم ريثما يتم لنا إعدام فصليتهم الدنيئة من بين صفوف المعلمين .

وأستميح القارىء الصديق أن أحدثه حديث قصة وقعت بينى وبين دجّال من هؤلاء فى عام ١٩٤٩ لعلها تمنحنا شيئاً من التسلية

بعد طول اصطناع الجد الثقيل ، ولعل أصدق الملامح ما يأخذه الفنان من واقع الناس .

كنت فى هذا العام أسير فى أحد ميادين القاهرة ، وفجأة وقع بصرى على صديق أحبه ، وما رأيته منذ طويل ، وكان صديقى يجلس فى شرفة أحد الأماكن العامة مع « زعيم » من هؤلاء ، تحف به « بطانته » .

وأقبلت على الجالسين وصافحتهم جميعاً فكانوا على كثير من الأدب فى ردّ التحية إلا حضرة « الزعيم » الذى لم يبد عليه أن قد شعر حتى بقدوم طارىء على المجلس الذى هو فيه .

وأحس صديقى ، وهو يعرف مبلغ حساسيتى . ويقظتى لنفسى فقدمنى إلى الحاضرين تقدمة كريمة أشعرتهم بوجودى وفجأة أكتشف « الزعيم » أنه أمام صيد ثمين ـ أو هكذا خيل إليه ـ ولهذا قد صمم فيما بينه وبين نفسه على اقتناص الفريسة بالمشروع وبغير المشروع من الوسائل فانظر ماذا حدث ؟ ! .

انتفض « الماهر الدجال » فى مقعده ، وحوّل نفسه جميعاً إلىّ وأقبل علىّ فى لهفة وشوق لست أدرى من أين هبطا ؟ فلو كنت أنت معنا لأيقنت بدون شك أننا صديقان حميمان منذ أمد بعيد . ولا يفوتنى الآن أن أقرر أن « للمهرة الدجالين » قدرة عجيبة شبه خارقة على تكييف مظاهرهم الانفعالية بالكيف الذى يريدون

وأنه لا صلة مطلقاً بين ما يختلج فى قلب أى من هؤلاء ، وبين ما يرتسم على ملامح وجهه من تعابير .

وهذا صنف من الشخصيات لئيم وخطر يتعب الإنسان كثيراً فى مراقبته قبل أن يستطيع درسه ، أو كشف مستوره .

المهم أن «الدجال الماهر» صفق بيديه ورجليه إن شئت ، وصاح بملء فمه يطلب «الجرسون» تحية لى . وأقبل «الجرسون» وطلبت فنجاناً من القهوة - وأنا فى الواقع أحبها - ولكنك تعجب من إصرار «الدجال الماهر» على أن آخذ أى شىء آخر غير القهوة ، أى شىء يمكن أن يدفع فى سبيله كثيراً تكريماً لى منذ ومتى هذا التقدير ؟ لست أدرى .

إنه تملق العواطف .

إنه فن خداع الجماهير .

إنه الاستغلال الصحيح لمواطن الضعف فى كل حى . إنه الآن يجرى لاهثا وراء نوازع الغرور فى نفسى ويحاول أن يأتينى من مسالكها .

ولا أكتم القارىء الصديق أنى بادلت «الدجال الماهر» خداعاً بخداع فقد حرصت منذ هذه اللحظة على أن أعرف كيف يتعاملون ؟ وما هى حيائلهم ؟ وكيف يغررون بالزملاء ؟ .

ولم تمض لحظات حتى كان « الدجال الماهر » قد اطمأن إلى أنى غدوت أسير هذا الكرم النبيل من شخصيته الساحرة .

وصدّق « الماهر الدجال » أنى « وقعت » فأراد أن يضاعف إطباقه على بشباك جديد .

وبعد أن أقترب منى بمقعده، وتدانت رأسانا كأننا نتناجى قال:

لقد طلبنى الوزير منذ أيام ، وتحدث معى فى شأنك طويلا .

فى شأنى أنا ؟ ! لماذا ؟ .

نعم : وهو ساخط عليك أشد السخط ، وكان مصمما على التنكيل بك .

بى أنا ياسيدى ؟ ! ! ولماذا ؟

لماذا ؟!! ألم تهاجمه مهاجمة عنيفة فى مقالاتك التى كنت تكتبها فى « الكتلة » تحت عنوان « لحساب من ياوزير المعارف ؟» وكنت توقعها بامضاء «درعمى» أليس كذلك ؟ إن الوزير يعلم كل حركاتك وسكناتك ، وكان قد تقرر نقلك إلى قنا ، ولكنى قد ألغيت هذا القرار وضمنتك على مسئوليتى .

صحيح أنى هاجمته ، وكتبت بهذا التوقيع ، ولكن كيف عرف الوزير أن هذا « الدرعمى » هو أنا ؟؟ وهنا بدأت « اسطوانة » الدجال الماهر « تخروش » وتختلط أنغامها « لولا كثرة « المحطات الإضافية » التى يحتفظ بها هؤلاء للوقت المناسب ، ويذيعون « برامجها »

فى الساعات الحرجة ، وهـذا الذى حدث . فقد اعتدل « الدجال الماهر » ودعا الأستاذ فلان . . . وكان إلى جوارى ، وقد سمع كل حرف همسنا به منذ جلسنا فقال له :

ماذا حدث أمس عند اجتماعنا بالوزير بخصوص الأستاذ . . . وأشار بيده إلىّ ؟ .

والجواب الطبيعى أن يقول المسئول : لقد حدث كذا وكذا مثلا . ولكنها « برتيتة » يتعاون أفرادها جميعاً لينقذوا مواقفهم ، ومن طبيعة العمل فى « البرتيتات » أن تكون لعوباً ماهرا وكذوباً ماهرا . وإمعة أكثر مهارة ، وأن تستغل كل موقف ، وكل حالة تغتصب فيها المجد بالحق . أو بالباطل .

وأخص صفات أهل « البرتيتة » أن يبرزوا شخصية « الزعيم » ويضفوا عليها من البطولة والمنزلة ما يسعى به إلى قلوب الجماهير .

ولهذا لم أعجب حين رأيت الأستاذ فلان يندفع قائلا فى حركة مسرحية :

ياسعادة البك أطال الله لنا بقاءك ، أنا والله مارأيت فى حياتى رجلا يقف مثلك هذه المواقف المشرفة ، إنك والله خير من يقود المعلمين ، ويرعاهم ويحميهم ، ويحقق آمالهم .

ثم أردف ملتفتاً إلىّ : تصور ياأستاذ أن الوزير بالأمس كان

فى منتهى الثورة عليك ، وكان مصمماً على نقلك إلى قنا ، لولا الموقف العظيم المشرف الذى وقفه هذا الرجل .

إن هذا صنيع لا ينسى ، ولا يتحلل من قيده إلا كل جاحد ، والله وحده يعلم أن الوزير لم يغضب علىَّ وأن أحداً لم يدافع عنى بل يعلم وحده أن واحداً من هؤلاء لا يجرؤ على فتح فمه فى حضرة « الوزير » .

وعلقت فى إحدى زوايا فمى سخرية مريرة حين رأيت هذه الحيل الساذجة فى محاولة فرض شخصية الزعيم وهيلمانها على شخص ليس خداعه ميسوراً .

حين رأيت هذه المحاولة المضللة تذكرت مثلا عامياً طريفاً ، عن « بائعى المياه ، وعن حارة السقايين » . وخرجت بعد سماع هذه الاسطوانة ، وقد أثقل كاهلى - أو هكذا خيل إلىَّ - بصنيع له قيمته . ألم يحمنى الزعيم من غضبة الوزير؟ ! ! .

وأنا من أوفى الناس ومن أحفظهم للجميل ، ولكنى لا أطيق ما يطلب « المهرة الدجالون » لقاء جميلهم لو جاملونى .

فلقد جاءنى أحد أفراد « البرتيتة » ليتقاضانى الثمن .

إنه يعرف بانى خطيب ، ويعرف أن لى قدرة على المشاركة فى توجيه الرأى العام ، لأنى أحب المعلمين ولأنهم يحبونى أيضاً . فماذا يريد ؟ ؟ .

إنه يساومنى على جريمة ، يريدنى أن أخون . . .

ولقد كان هو من غير شك دجالا . . . ماهرا .

ولم أكن أنا . . إلا واحداً من المعلمين . . . مهمته الكبرى هى . . . تلقين الدروس ؟ ! .

هذه فى الواقع ليست قصتهم معى خاصة ، وإنما قصتهم مع كل زميل يشقيه القدر ليكون من ضحاياهم ، قصتهم التى خدعوا بها المعلمين أعواما طوالا ، وسقوهم فيها كؤوس الفشل المرير مترعة ضافية أليمة .

هى قصة الخداع ، والتضليل ، واغتصاب جهود الآخرين .

ومهما يكن من شىء ، فما يزال باب التوبة مفتوحاً لمن يريدون التكفير عن خطاياهم ، وما يزال طريق العودة واضح المعالم لمن يريدون التطهر والإنابة .

فإن ندموا واستقاموا ، وأعلنوا المتاب ، فنحن أكرم .

وإلا فوالله لن يلوم المهرجون إلا أنفسهم ، ووالله لن يهدأ لى خاطر حتى أفضح عوراتهم واحداً بعد واحد حتى أحطمهم ، وأرغم أنوفهم ، وحتى أجعل منهم عبرة لكل من نسوا شرفهم وخانوا قضاياهم .

أولئك هم القدامى من قادة الحركات تجار . . أدنياء . . . من صنف رخيص . . . كل ما يعرفون . . هو . . كيف يَصِلون ؟ .

وأما المحدثون؟

فلا أكاد أرتضى وصفهم بالإجرام ، لأن المجرم هو من يتسبب فى الجناية على المجموع بالإيجاب أو السلب عن قصد .

وهؤلاء كالرضيع الصغير تقدم إليه ثمرة حلوة ذات فائدة وجنى فيعرض عنها لأن لونها قاتم غير مثير .

وتقدم إليها الجمرة المشتعلة بلونها الخُلَّب فيندفع صوبها مأخوذاً بهذا التراقص البديع من ألسنة اللهيب ، ويتناولها بيد لا تمس النار حتى يعلو صراخه .

وهو الآن قد جنى وأصاب نفسه بالشر ، وأصاب من حوله معه ، ولكنك غير مستطيع أن تقول عنه إنه جان . . . لأن قصد الجناية معدوم سلبا ، وإيجابا .

ولا أكاد أرتضى وصفهم بالخيانة .

لأن الخائن من تثق فيه ليكون حامى ظهرك ، فإذا هو الذى يطعنك من الخلف ، ويأتيك من حيث تأمن ، فركنا الخيانة هنا : أن توجد الثقة بالخائن أولا : وثانياً أن يخون هو .

والركن الأول قد يكون موجوداً حين يخدع المعلمون فى الثقة بهؤلاء ولوز مناما ، وأما أن يخونوا هم فلا . . . لأن اليد التى توجه الطعنة يدٌ قادرة ، وهم ليسوا كذلك .

إنهم أضعف بكثير ، إن أعوادهم رخوة ، إن بنيانهم طرى .

فمن يكونون إذن ؟ وماذا يقال عنهم ؟ ؟ .

أهم ملائكة ؟ ؟ كلا . إن الملائكة فى السماء ، وهؤلاء فى الأرض . . . الأرض التى يلطخ وجهها الطين ، والوحل .

أهم أبطال ؟ ؟ كلا أيضاً . . . لأن البطل من يبتلى حين يحمى الحمى ، ويدفع العادية وهؤلاء لم يبتلوا ، ولم يصبهم ضر ، ولم يضحوا بشىء .

إنهم لم يبرحوا بعد مكامن الحريم .

فمن يكونون ؟ ويم يمكن وصفهم ؟

الحق أنهم أطفال .

أطفال . . . مغفلون . . . لم ينضجوا بعد .

والطفولة فى ذاتها ليست جريمة ، ولا ذنباً . . . بل هى ضرب من الخلود حين يحتفظ بها الفنان ويظل موفور شباب الروح أبد السنين .

ولكنها ضرب من الخراب إذا كانت فى زعيم أو قائد ، وهذا شىء موفور لدينا .

فقد منيت حركة المعلمين الأخيرة بمجموعة من هؤلاء كما منيت بشر منهم كانوا فرائس سهلة لأقل الصيادين دربة ومهارة ، فما بالك إذا كانت وزارة المعارف مليئة بأفاع ذوات أنياب ومخالب زرق وسود .

ولقد كان من الممكن أن أغفل الكتابة عن قادة الحركات ومتزعميها، وأن أعبر أوكارهم فى صمت لولا تقديرى لعاملين هامين.

أولا : أن الأدنياء من الأقدمين منهم يعتقدون فى قرارة نفوسهم التى لم تهذب أن التزعم تجارة رابحة تضمن الدرجات والترقيات وما هو أكثر من هذين فى غفلة من المعلمين الذين لا يكادون يبدأ العام الدراسى، حتى تشغلهم أعمالهم عن تعقب اللصوص ومحاسبتهم على ما يدور باسم المعلمين فى الظلام.

وهذا الكسب الكبير الذى لا رقيب عليه يغرى كثيرين من المحدثين بأن ينسجوا على المنوال لعلهم أن «يصلوا» كما وصل غيرهم.

وإزاء هذا الشر الخطير أحس من واجبى كمعلم ينفر من الدجالين أينما ثقفوا، ثم لا يرتضى مطلقاً أن يتاجر باسمه أحد، أحس من واجبى أن أجند هذا القلم الضعيف ليشعل النار حيث الخفافيش، والبوم، رجاء أن يتوب الآثمون من الرجال، وأن يستيقظ المغفلون من العيال.

ثانياً : أن الرجل الذى يتولى أمر المعارف اليوم، وهو «الدكتور طه» رجل بطبعه إنسان وفنان.

والإنسان الفنان، لا يعرف اللؤم، ولا يعرف الخبث، ولا يحيط من أمر هذه النفوس الهاوية بكبير علم، وقد تستطيع

هذه النفوس أن تجيز عليه الشر ، أو أن تستغل نبل نفسه بما يسىء إليه

والخيِّر النبيل يحسب الناس جميعاً خيِّرين نبلاء .

لهذا - وبنفسى للإنسان العظيم تقدير وحب - أبعث إليه محذراً من الثقة بهؤلاء ، فإن المعادن تختلف .

وبعد : فهذا كله ليس إلا شيئاً قليلا مما يجب التعرض له ، وسوف تتاح لى الفرصة القريبة لأشرح للرأى العام التعليمى خيانات « أكابر مجرمى الحركات » كيف يقومون بها ؟ وكيف يستغلونها ؟.

ولأظهرهم على حقائقهم المجردة عارين من كل صفة إلا الدجل والخداع ، والصيد فى الماء العكر .

الطفرة أو الثورة ؟؟

وأعقد هذا الفصل لأتحدث فيه خاصة إلى « الوزير الشعبى » معالى الدكتور طه حسين باشا . وأحب قبل البدء فى الحديث أن أتساءل ؟ .

هل الصلة بين الطفرة وبين « الوزير الشعبى » تلك التى يعرفها من أبناء الشعب كل من كانت به خصاصة تحرمه من العلم وتحول بينه وبين ضياء المعرفة ، وكل من كانت تفيض أعينهم من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ليعلموا أبناءهم ! ! .

فلما جاء الوزير الشعبى أحدث الطفرة التى أزالت على الكرامة خصاصاتهم وكفكفت على الرضى أدمعهم ؟ .

أم هل الصلة بين الطفرة ، وبين الوزير الشعبى تلك التى يعلمها أولئكم السراة المترفون السادة الذين كانوا يتفردون بالتعليم فى مدارس خاصة أوشبه خاصة يرضون فى عزها الأليف غطرسة أبناء البيوتات ، وأبهة الارستقراط ، ولا يلمحون فيها من وجوه أبناء الشعب إلا « البوابين » « والخدم » ! !

فلما جاء الوزير الشعبى أصبحت الأمور « فوضى » كما يقول هؤلاء حين يعلنون سخطهم وأصبح لأبسط أبناء الشعب حق

قانونى مشروع فى أن يرتاد من بيوت التعليم مايشاء ، ولو كان البيت الذى آثره أبناء الوزراء ورؤساء الوزارات ؟ .

أعتقد أنه . . . لا .

لأن الطفرة فى مجانية التعليم ليست بإعفاء التلاميـــذ من « المصروفات » وإلغـاء نفقات التعليم ، فإن جنيهات عشرا ، أو أكثر منها لا يحتاج إلغاؤها ، أو إبقاؤها إلى تتابع وتدرج .

ولأن الطفرة فى مجانية التعليم ليست فى تمكين عدد كبير من أبنا الشعب من نور المعرفه مكان عدد قليل منهم ، فإن الأمر فى هذه الحال أمر المال الذى تجود به الميزانية العامـة للدولة إن زاد زاد الناس ، وإن لم يزد لم يزيدوا .

فأين الطفرة إذن إذا لم نجدها بين ذلك كله ؟ .

وبماذا يمكن أن نصف العمل الخطير الذى أقدم عليه « الوزير الشعبى حين جعل التعليم بالمجان ؟ .

الحق أن كلمتى « الطفرة » ، « والتدرج » لا وجود لهما فى موضوع حديثنا الآن ، ولا يصح أن توجدا ، وأن العمل الخطير الذى أقدم عليه « الوزير الشعبى » لا يصح وصفه بالطفرة أو بالتدرج لأنه شىء أعمق من هؤلاء جميعاً .

فإن من الطفرة أن تجعل للخروج من السجن أبوابا عشرا مكان باب واحد .

فإذا حطمت السجن كله بأبوابه وأسواره وحيطانه وأسقفه جميعاً فهـذا ليس طفرة وليس تدرجا وإنما هو شيء أخطر من هذين جميعاً .

إنه الثورة ... الثورة العارمة الهادمة البانية التى تنتقل بالمجتمع إلى طور جديد ، تتغير معه العقليات والأفكار والمقاييس والنظم.

الثورة التى تلد المبادىء .

وقد كان مبدأ ثورة الوزير الشعبى أن يتساوى الناس .. الناس الذين يرويهم النيل ، ويغذوهم شاطئه الخصيب .

ولـكن : بمن يريد الوزير الشعبى الثائر أن يتساوى الناس ؟ .

أبا لسراة الأرستقراط المترفين السادة ؟؟ .

كلا : فإن الوزير الشعبى الثائر يعرف جيداً أننا فى مصر ، وأن لهذا البلد مقدسات لا يصح التطاول عليها ، وأن لهـذا البلد نظاما اجتماعياً طبقياً لا يطيق هو ولا غيره أن يحملوا أوزار هدمه .

ويعلم أيضاً أن رجال الأزهر فى مصر يحفظون عن ظهر قلب قوله تعالى « وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات » .

ويعلم أن البوليس السياسى فى مصر يستطيع أن يراقب الوزراء وأن يحسن الرقابة عليهم ويستطيع أن يتهم من يشاء بما يشاء .

وهو لهـــذا لم يحاول ، ولن يحاول ، أن يسوّى « الناس » بالسراة الأرستقراط المترفين السادة .

فبمن يريد الوزير الشعبي الثائر أن يتساوى الناس ؟ وفي أي شيء يريد أن يتساووا ؟ .

إن الجواب على هذا السؤال فقط عند صاحب « الأيام » عند وزير المعارف نفسه عنـــد الرجل الذي نشأ هناك على شاطىء « الإبراهمية » ، وعرف أن آلافاً من البشر قد فنيت وضاعت فوق هـذا الإقليم ، وأن آلافاً أخر سوف تفنى ويضع فوق هذا الإقليم وفوق غيره أيضاً ، وعرف أنه وحده أوقلة معه لم يضيعوا ولم يفنوا ، وعرف أنه وحـده من بين هؤلاء جميعاً لم يكن شيئاً مذكوراً فأصبح شيئاً مذكوراً ، وشيئاً ذا خطر .

فما الظروف التي هيئت له ولم تهيأ للآخرين ؟ وكيف قدر له أن يهزم أسباب الفناء جميعاً ؟ .

يقول الوزير الشعبي نفسه إن العامل الأوّل في عدم ضياع من لا يضيعون هو الثقافة . وأن العامل الأخير في عدم فناء من لا يفنون هو الثقافة . وأن العامل المتوسط بين الأوّل والأخير هو الثقافة أيضاً .

ولهذا أراد أن يسوّي بنفسه في الثقافة جميع أبنـاء الشعب ، وأن يمنحهم من نورها ، وضيائها ما ظفر بمثله من نور وضياء .

وأن يعينهم بالثقافة والعلم ، على أن يخلدوا ويدونوا ، وأن يحصنهم بالعلم والثقافة من الضياع والفناء .

سدد الله خطى الإنسان العظيم .

وحفظه وأبقاه ، وأمتع به ، وأعانه على إرضاء ذات نفسه ، وهيأ لمصر لفيفاً من نماذجه المؤمنة القادرة تثور وتثير المصريين جميعاً على الجهل الفاتل الذليل .

ولكن ؟ .

ولست أبغض ولكن هذه كما أبغضها ، وأنا أتحدث عن مثل وزيرنا الشعبي العظيم الثائر فقد أصبحت أقدس فى الوزير ثورته وشعبيته كما قدست فيه من قبل فنه وإنسانيته ، ومن كان أستاذ روحى وموطن التقديس من نفسى لا أسمح لكن أن تستدرك من أمره شيئا ، ولا أن تعقب من تصرفه على شيء لولا أن للثورة العظيمة معقبات ثقالا هبطت على رأسى أنا كمعلم مكدود .

أولا : هل نمى إلى علم الوزير الشعبي الثائر أن عدد تلاميذ الفصل هذا العام قد بلغ حداً لا يكاد يصدقه العقل ، ولا يمكن للتعليم معه أن يسمى تعليما . وإلا فكيف يعتقد الوزير العظيم أن المعلم - ولو كان أفلاطون - يستطيع أن يباشر المعرفة الصحيحة مع ستين تلميذا فى مدى ثلاثين دقيقة، وكيف يستطيع « ضبط » الفصل وتوفير السكينة والهدوء ؟ وكيف تتأتى له أن يدرس نفسيات هؤلاء التلاميذ ، ويتعرف إلى مواطن الثقافة فى عقلياتهم ، وكم من الزمن يتاح له ليتبادل مع تلاميذه إيحاءات نفسه وهمسات حسه ومشاعره ؟ وأى نوع من أنواع الفوضى النفسية يتعرض له المعلم إذا كان محاطاً

بالفوضى من جميع الجهات فى فصل طويل عريض تصعب السيطرة على تلاميذه ؟ وكيف ينتج التعليم إذن إذا كانت أسباب إنتاجه غير ميسورة ؟ .

إننا نعلم جيداً أن « الدكتور طه » قد عاش حياته العلمية كلها عيشة الجامعيين منذ كان يجلس فى « الحلقة » بين ستين وستين من « المجاورين » فى الأزهر إلى أن دخل الجامعة القديمة فشاهد القاعات والمدرجات تضيق بالطلاب ومنذ أصبح فى الجامعة أستاذاً يلقى المحاضرة فيستمتع بها المئات من الحاضرين .

إننا نعلم هـذا جيداً ، ونعلم أنه السبب الذى جعل « الدكتور طه » يسيغ أن يجلس فى الفصل الواحد من تلاميذ هـذا العام ستون أو ما يزيد .

ولـكن على الوزير أن يتذكر ما بين الجامعة ووزارة المعارف من بعيد الفواق .

فإن طالب الجامعة لا يؤذيه أن يتخلف عن محاضرات الأستاذ أكثر العام ، ولا يفوت عليه المعرفة أن يجلس بين ستين أو بين ستمائة ، وقد يكفيه ويفيده أن يتفهم الخطوط العامة لمنهج أستاذه فى البحث والدرس ، وعليه وحـده أن يتعمق ما يريد . لأن عماد الدراسة الجامعية قائم على الطلاب لا على الأساتيذ .

أما تلميذ وزارة المعارف فأى لحظة يخطئه فيها ما يقول المعلم

ضياع من ثقافته لايستطيع وحده أن يعوّضه لأن عماد الثقافة فى الوزارة مركوز فى المعلمين .

وطالب الجامعة مطلوب إليه أن يبتكر ويجدد ، وأن ينطلق فى آفاق المعرفة حراً يحصل مايرتضيه ويسيغه غير سائل عن الأستاذ فى كثير أوقليل لأن مقياس التميز فى امتحانات الجامعة أن يتحرر الطالب وأن يبتكر . وليس الأستاذ فى الجامعة إلا موجهاً ومعينا .

أما تلميذ وزارة المعارف فمطلوب إليه أن يحفظ وأن يردد مايقول المعلم ، ويحرم عليه الابتكار والتجديد لأن مواد الدراسة فى الوزارة لاتطيق التحرر ولا تقبل التجديد ، ولأن مقاييس التميز فى امتحان المعارف أن يتقيد التلميذ بما تلقاه من المعلم فينقله فى دقة وأمانة وصدق .

ثانياً : هل نمى إلى علم الوزير العظيم أن وزارة المعارف فى عهده قد وهبت القدرة الخارقة على أن تقول لأى موظف عادى كن مدرساً فيكون . وأنها استطاعت أن تخرج للدولة مدرسين فى هذا الصيف من « ماركة ست أسابيع » ؟ .

فهل أعدّ هؤلاء الموظفون الإعداد الفنى الكامل للتدريس كما يحب المثالى العظيم ؟ .

أم هل صحيح مايزعم الزاعمون أنه التهريج ؟ .

الحق أن « الدكتور طه » هو وحده المسئول عن هذا وعن أكثر

من هذا ، وهو وحده الذى يجب أن يوجه إليه اللوم والتعب الشديد إذا كان فى سياسة المعارف فى عهده مايستحق اللوم والتعب الشديد .

وقد يقول بعض من يحبون « الدكتور طه حسين » ويحاولون أن يدفعوا عنه أن الطفرة وفترة الانتقال هما السبب فيما حدث فى عهد طه حسين ، وهو عذر قد يخدع به البعض .

ولكنى أراه عذراً أقبح من الذنب كما يقولون « فطه حسين » لم يكن قصير النظر حين فكر فى مجانية التعليم ، وفكر فى معقباتها فكان عليه أن يحسب لهذه الخطوة الجريئة حسابها ، وأن يقدم هديته للشعب كاملة وجميلة وكان عليه أن يخرج هذا العمل الفريد فى الصورة الممتازة البريئة حتى من أتفه العيوب لأنا تنظر إلى « طه حسين » على أنه رجل مثالى ليس عندنا كثير منه فأقل هنة يتعرض لها عمله تعرض الوزير العظيم للوم والعتاب الشديد .

وقد يقول بعض من يحبون « طه حسين » ويحاولون أن يدفعوا عنه إن ميزانية الدولة من جهة ، وعدم إمكانية التنفيذ بالصورة الخاطفة من جهة أخرى هما اللذان أديا إلى هذا الوضع . وسيقولون إن الوزير هدد بالاستقالة ومايزال يهدد إذا مست ميزانية المعارف ، وأنه طاف بالأقاليم بجمع التبرعات لحماية مشروعه العظيم .

ولكن منذ متى كانت تبرعات أهل الخير من الموارد المضمونة

التى يدخلها المسئولون فى حسابهم عند الإقدم على أى عمل ؟ ومنذ متى جازت الثقة بشىء لا يزال فى ضمير الغضب وخاصة إذا كان مالا ؟ ولماذا أقدم الوزير العظيم على التصرف بما تضيق عنه ميزانية وزارته ؟ ولماذا لم يفكر فى الميزانية وضيقها واحتمالها قبل اتخاذ أية خطوة ؟ .

إن « طه حسين » فنان مثالى من غير شك وطبيعة الفنان المثالى لاتسمح له أن يخرج عملا فنيا فيه أى « شلفطة » فلماذا سمح الإنسان العظيم أن يترك الفرصة لبعض الناس أن يقولوا عن مشروعه العظيم الرائع بأنه ضرب من التهريج .

أسأل الله ألا يخرج « الدكتور طه » من الوزارة فى هذا التعديل كما تقول الصحف حتى يستطيع توفير جميع أسباب المثالية والكمال لهذا العمل الخطير وحتى يستطيع بعمله أن يرد على من يعجزنا أحيانا أن نرد عليهم .

وأخيراً

إذا استطاعت وزارة المعارف أن تخلص من أدوائها تلك ، كان لها أن تأمل فى سياسة تعليمية تورث الشعب نهضة كبرى وتطوراً جديدا ، وكان لها أن تعقد الرجاء على صف من الشبيبة صلب كأنه البنيان يدفع متوحداً عن حماها ويصون من كل شر ديارها ، وينساب فى ميادين التضحية والفداء مطئن الضمير تحمى عدالة المجتمع ظهره من كل نازع سوء .

ولنأخذ بعد فى رسم السياسة التعليمية الجديدة التى أعتقد مخلصاً أنها السبيل الطبيعى لخلق شعب موحّد الأفكار والمشاعر ، والتى أتمنى من كل قلبى أن تقع مواقع الرضا من قلوب المصريون عامة وأفاضل الزملاء من رجال التعليم خاصة .

التنظيم الجديد

لمراحل التعليم

وتوصلا إلى الغايات التى قررنا من قبل، نرى أن تنظيم مراحل التعليم على السياسة الآتية :-.

(ا) المرحله الأولى : ومدتها ست سنوات تبدأ منذ السادسة:

ويجب أن يكون الغاية منها خلق التلميذ « المصرى . العربى . المتدين » التى تشرب روحه جهد المستطاع بكل ما هو مصرى ، وتبنى استعداداته الأولى على الإيمان بكل ما هو مصرى وتفتح مشاعره على الإحساس بمصر العظيمة ، تاريخاً ، ودينا ومجداً وحضارة . وتكون عقليته تكوينا مصرياً عربيا دينياً صحيحا .

فهذه المرحلة من أجل مصر ، ومن أجل مصر وحدها بحيث تخلق من التلميذ مصرياً فى لحمه ودمه مصرياً فى دينه ولغته . وثقافته .

ولهذا فانا شديد الأيمان بأن أى ثقافة أجنبية عدو شديد الخطر على الثقافه القومية وأن أى لغة أجنبية فى هذه المرحلة أمر شديد الخطرة على اللغة القومية للبلاد .

فيجب ألا يعرف التلميذ فى المرحلة الأولى من اللغات الأجنبية حرفا واحداً ويجب إلغاء اللغات الأجنبية فوراً من جميع مدارس المرحلة الأولى .

ويجب أن يكون برنامج الدراسة فى هذه المرحلة موقوفاً على استيعاب الأسس الكاملة للدين القويم ، وعلى حفظ القرآن الكريم أو الإنجيل المقدس ، أو أكبر جزء منهما بحيث لا يفرغ التلميذ من هذه المرحلة حتى يكون ملماً إلماماً أصيلا بمبادىء دينه وأصول عقيدته ، وحتى يكون قد حفظ من الكتابين الكريمين أكبر قدر مستطاع .

كما يجب أن يحيط التلميذ علماً بجميع المبادىء العامة لقواعد اللغة العربية ومواطن الجمال فى آثارها الأدبية الخالدة بحيث يترسب فى نفسه تقدير هذه اللغة وحبها واحترامها ، وبحيث تكون له أصالة لغوية يدور حولها تفكيره وتعبيره ، وهى فى نفسه فى مركز مستقر .

كما يجب أن يختار له من تاريخ مصر الجانب المشرق المضىء الذى يخلق منه متعصباً لمصر قوى الإيمان بوجودها وحتمها فى الحياة .

(ب) المرحلة الثانية .

وتبدأ منذ نهاية المرحلة الأولى .

والغاية منها : خلق التلميذ المصرى الحى . وأعنى به هذا الذى يستطيع السير فى الحياة بغير سند ، والثبات لكفاح الزمن نوعاً ما ويستطيع أن يكسب عيشاً كريماً ملائماً بوسائل شريفة وملائمة بحيث يصح بعد نهاية هذه المرحلة صالحاً لأن يفيد الدولة ويستفيد منها .

والطريق إلى هـذا : يجب ألا تقل المرحلة الثانيـة عن ست سنوات نقسمها إلى قسمين :

فأما الثلاث الأولى فيجب أن تتسع برامجها لدراسة لغة أجنبية واحدة يختارها التلميذ أو تختار له من بين اللغات الأجنبية عامة . على أن تـكون دراسة شاملة كاملة تمكن له من الإثراء باللغة التى اختارها حين تصبح هـذه اللغة جزءاً من مقوماته الثقافية يستطيع استخدامها فى الـكتابة أو فى التخاطب .

كما يجب أن تضمن البرامج دراسة فنون الاختزال والآلة الكاتبة والسكرتارية والسنترالات وغيرها من الثقافات التى هى فى الحقيقة عنصر هام تحتاجه الحياة العلمية . بحيث يمكن أن تـكون هذه الدراسة عونا له على الحياة إذا اضطر إلى النزول فى ميادينها وبحيث تـكون وسيلة من وسائل تيسير العيش الملائم للتلميذ إذا لم يستطع مواصلة الدرس .

ويوسعنا أن نصف هـذه الفترة من المرحلة الثانية بأنها تخلق فى التلميذ نصف كفاءة للحياة وتهيؤه لها نصف تهيئة .

وفيما بقى من سنوات هذه المرحلة مايكمل إعداد التلميذ للحياة وما يكمل أيضاً إعداده للمرحلة العقلية العليا فى التعليم الجامعى .

وسبيلنا إلى ذلك . أن تخصص السنوات الباقية فى هذه المرحلة لدراسة الاتجاهات المختلفة عنـد التلاميذ ، على أن تـكون هذه

الاتجاهات صورة صادقة من واقع الحياة ، وأن يكون لكل كلية فى الجامعة شعبة فى التوجيهى يتخصص طلابها فى المادة التى سوف يدرسونها فيها ، فيكون فى التوجيهية شعبة للطب تؤهل طلابها لدخول كلية الطب ، وشعبة للعلوم تؤهل طلابها للعلوم ، وشعبة للزراعة ، وشعبة للتجارة ، وشعبة للدين وللغة العربية ، وما إلى ذلك بحيث تكون كلمة «توجيهى» حاملة لمعناها الصحيح الذى يقصد منها لأنها إذن سوف تتيح للطالب فرصة أكبر يتصل فيها بالمادة التى سوف يتخصص فيها فبدل أن يدرس طالب الحقوق أربع سنوات فى الجامعة فقط سوف تتاح له فرصة عامين أو أكثر فى التوجيهى يتعرف فيها إلى القانون وتزداد ثقافته فيه ، وما يقال عن الحقوق يمكن أن ينطبق على جميع كليات الجامعة ، وبهذا يكون العمر العلمى للتلميذ قد أضيف إليه عامان دراسيان أو يزيد وهذا كسب عظيم .

والذى أقصد إليه من التقريب بين مايدرس فى الجامعة ، وما يدرس فى التوجيهى ومن جعل القسم التوجيهى ثلاث سنوات بدل سنة واحدة .

أن أهيىء التلميذ لدخول الجامعة إذا أراد وقدّر له دخول الجامعة

وأن أهيئه لأن يأخذ فى المجتمع وضعاً كريما مناسباً إذا لم يقدر له دخول الجامعة .

فيستطيع من لم يدخل الجامعة من شعبة الزراعة أن يباشر الأعمال الزراعية اليسيرة التى يستفيد هو منها ويسفيد المجتمع ، ويستطيع من لم يدخل الجامعة من شعبة الدين أن يباشر الأعمال الدينية الأولى كالمأذونية وإمامة المساجد وغيرها مثلا من الأعمال التى لا تحتاج مباشرتها إلى عميق ثقافة. على أن حامل التوجيهى عندنا لن يكون فارغا ، ولا عائما وإنما سيكون شبه متخصص بعد أن أمضى ثلاث سنوات فى دراسة المادة التى توجه إليها .

فإذا قدر للتلميذ أن يدخل الجامعة فدونه أبوابها مفتحة ،

وإلا : لم ينزل إلى الحياة ضائعاً حيران مضطربا كجميع التلاميذ الذين يحملون التوجيهية فى مصر ، والذين ترفضهم الحياة رفضا شنيعا ، ولا ترى فيهم صلاحية لشىء أكثر من الانزواء القاتل فى «أرشيف» ديوان من الدواوين تأكلهم الرطوبة، ويسخر منهم الزمن .

التعليم الجامعى

المرحلة الثالثة :

وقد يكون ميسوراً أن نتحدث عن التعليم الجامعى بعد أن أصبحنا شبه مطمئنين إلى سلامة سير التلميذ فى المرحلتين الأولى والثانية ، فالجامعة ليست إلا المورد الأخير الذى تنتهى إليه هذه الروافد الجارية ، ومادامت غاية التعليم فى المرحلة الثانيـة أن يعد التلميذ للتعليم الجامعى أولا ، فمن الواجب علينا أن نطالب باستقبال هذا الجيش اللجب من الشبيبة المصرية المثقفة من ذوى الاتجاهات العلمية المختلفة ، ومن حقنا أن نطالب الدولة بأن تكون فيها على الأقل أنواع خمس من الجامعات تنتظم ، أو يمكن أن تنتظم مرافق حياة المصريين جميعاً ، وتلائم روح التطور الذى نسير فيه .

فلتكن هناك جامعة دينيه تتلقف تلاميذ شعبة الدين لتصوغهم على عينها قضاة للشرع ، أو محامين له ، أو علمـاء لأصول الدين . أو ما إلى ذلك من الثقافات الدينية العالية .

ولتكن هناك جامعة أدبية تتلقف تلاميـذ شعبتى الآداب والحقوق ، واللغة العربية ليتخرجوا فيها أدباء منتجين ، ونقاداً أو صحفيين أو علماء لغة أو مترجمين أو محامين .

ولتكن هناك جامعة فنية تتلقى التلاميذ من الشعب الفنية ليتخرجوا فيها مثالين أو ممثلين ، أومسيقيين أو مصورين وما إلى ذلك من الفنون الجميلة الراقية ولتكون فيها كليات للتمثيل والموسيقى والنحت والتصور والرسم .

ولتكن هناك جامعة علمية تتلقى أصحاب الاتجاهات العلمية فيتخرج فى كلياتها الأطباء والصيادلة ، والكيماويون ورجال الزراعة والتجارة والمهندسون .

والحق أن حديثى عن التعليم الجامعى ليس فقط إلا ضرباً من استكمال البحث بعد هذه الخطوات المباركة التى بدأها الدكتور طه نحو الجامعات المصرية . ولكنى سوف اتحدث بإيجاز عن أمرين عامين يتصلان أعظم الاتصال بالتعليم الجامعى وهما : مجانية الجامعة والجامعات الأهلية :

أولا : مجانية الجامعة .

نريد أن يمكن أكبر عدد ممكن من أبناء الشعب من نيل قسط وافر من هذه الثقافة الجامعية العالية .

ولذا فلا ضير أن تكون فى التعليم العالى مجانية .

وأن تقصر على الصالحين الممتازين من أى طبقة كانوا . بشرط أن يكونوا عاجزين .

ومن الخير أن نترك تقدير العجز والإطاقة لرجال المال والاقتصاد وإن كنا نرى مثلا أن الموظفين من طبقه الدرجة الخامسة عاجزون أو أشبه بالعاجزين .

وإذا فلا مانع عندى من اعتبار كل صاحب دخل فى مثل هذه الدرجة عاجزاً سواء كان من المزارعين أم من التجار .

وأمر هذه المجانية بهذا الوضع مجال للماطلة والتسويف والأخذ والرد . فلا مانع عندة من تشكيل لجنة مالية تقدر مصروفات كل كلية جامعية على حدة ، ثم تقدر مستوى العجز والإطاقة عند ذوى الدخل مهما يختلف حالهم .

وبعد انتهاء اللجنة من عملها فلا مانع لدى أيضاً من أن تتولى الدولة خصم المصروفات من مرتب صاحب الدخل إن كان موظفا .

ومن إضافته بصفة ضريبة إن كان تاجراً ، أو بصفة « مال ميرى » يدفع أيضاً على الفدان. ويحصله « الصراف » إن كان مزارعا.

ولا مانع أيضاً : أن يكون فى كشوف مرتبات الموظفين ، وفى دفاتر التجار، وفى « ورد » الأموال المقررة « خانة » للمصروفات الجامعية ، يدفعها صاحب الدخل إن كان يربى جامعياً . وكان هو نفسه منى دوى الإطاقة .

ثانياً : الجامعات الأهلية .

ومن البديهى أننا حين نطالب الدولة باحتمال نفقات التعليم الجامعى نكبدها سبيله المتعاعب . فلن نمكن منه إلا الممتازين والصالحين والأكفاء الذين يمكن أن يعوضوا الدولة فى مستقبلهم لقاء ماتبذل فى حاضرها من أجلهم .

وتقدير الصلاحية والامتياز أمر متروك لرجال الجامعة ولهيئة التدريس فيها .

ومن البديهى مرة أخرى أنه لن يقدر لجميع الذين فرغوا من المرحلة الثانية من التعليم أن يدخلوا الجامعة ، ومعنى هذا أن أبواب الجامعة ستوصد فى وجوه الكثيرين من المصريين لعدم ظفرهم بالتقدير العلمى المؤهل للجامعة .

وهؤلاء الذين يحرمون من دخول الجامعة لضعفهم العلمى فريقان :

(ا) العاجزون من أبناء الشعب عن احتمال نفقات جديدة للتعليم. وهؤلاء من الخير لهم وللدولة . ما داموا قد اجتمع فيهم العجزان المادى والعلمى .

من الخير أن ينصرفوا إلى الحياة فيعالجوا أمورهم فقد تتاح لهم فيها فرص ربما تكشف عن مواهب يمكن تنميتها فى غير الحرم الجامعى .

وإلا فيكفى أن يظفروا بحياة ملائمة مقبولة. لا تحط من مستواهم .

(ب) والفريق الثانى هم أبناء السراة القادرين على احتمال العبء المادى مهما يكن أمره . والذين وإن لم يتح لهم الظفر بالتقدير العلمى لدخول الجامعة . إلا أنهم مع هذا يرغبون فى الثقافة ويقدرون على البذل فى سبيلها .

فلهؤلاء، وهؤلاء وحدهم يجب أن تفتح الجامعات الأهلية أبوابها وعلى هذه الجامعات تبسط الدولة سلطانها التعليمى ، وعلى الدولة أن تعقد الامتحانات النهائية لطلابها مع نظرائهم من أبناء الجامعات الحكومية . وإلا فالدولة فى حل من الالتزامات التى تترتب على الاعترافات بالدرجات العلمية الممنوحة لهم .

تدعيم

بهذه الكلمات القليلة القادمة ينتهى الجزء الأول من الكتاب ، وبانتهائه نكون قد فرغنا فقط من تكشيف الأرض حول الشجرة الخبيثة تمهيداً لقطع جذورها .

والشجرة الخبيثة فى وزارة المعارف تلك التى غرسها بيديه الأثيمتين « دنلوب » وأعانه عليها قوم آخرون جنوا إثماً ووزرا وخيانة لما أتت أكلها ضعفين شراً وإذلالا وضعفاً وشقاقا .

وإذا كان المصريون يريدون أن تخلص لهم مصر مما هى فيه من شر ، وأن يخلصوا هم لأنفسهم مما يقصم ظهورهم من ذل ، وإذا كانوا يريدون أن يستبدلوا من ضعفهم قوة وتوثبا ، ومن شقاقهم الأليم محبة واتحاداً ، فليولوا وجوههم شطر وزارة المعارف ليطردوا من قيادتها جميع الصنائع القذرة التى رباها « دنلوب » على طريقته أو ربيت فى عهده على الأقل . لأن هؤلاء جميعاً وزراء كانوا أم أشباه وزراء أم من دون هذين شر مستطير لا يشع منه إلا شر ولا يملك الأشرار حتى لو أرادوا أن يصبحوا خيرين وهؤلاء جميعاً رخاص أذلاء سحب الخواجا حمرة وجهه القانية من دماء قلوبهم ومن كرامة وجوههم ثم علقهم فى خيوط حذائه أشباحاً حقيرة تسجد له إذا قام ، وتصلب مهينة بين يديه إذا جلس

وما يملك الأزلاء يوما أن يصبحوا كرماء ، فكيف يترك فى مكان القيادة من يفرع كل شىء أحمر يذكره بوجه « المستشار » ؟!

وهؤلاء جميعاً يداسون فى دخائل نفسياتهم هواناً مريراً ذاقوا أساه أيام « بلوب » ، ولم يكونوا صالحين لأن يخلصوا منه ، ولا أن يثوروا عليه ، ولكنهم يستديرون ليثأروا لأبائهم السليب من مرؤوسيهم أبناء هذا الشعب فيفرغون ذلهم الدفين على رؤوس هؤلاء غطرسة وكبراً وغلظة وجفاء طبع .

فليتفضل الوزير الشعبى الثائر الموطأ الأكتاف بأن يتوجه بالنصح إلى السادة الكبراء فى وزارته أن يتعاملوا معنا نحن الشعب بشىء من التواضع والدعة وخفض الجناح ولين الجانب .

فإن أصاخوا لنصح الوزير فسوف يكون عهد جديد لنا فيه أمل ، وإلا فعلى الوزير أن يدعم أخلاق الوزارة بألوان جدد تصلح لتأسيس دعائم النهضة وتكوين جنودها الأشداء .

وإلى اللقاء فى الجزء الثانى لنضع أمام القراء من مآسى التعليم المصرى ما هو جدير بالثورة والتحطيم ؟ .

عبد الصبور مرزوق

[redacted]
مرزوق، عبد الصبور
فوضى التعليم فى مصر
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01022190

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الأميركية في بيروت

[redacted]

General Library

370.962
M393PA
v.1